محمد عزيز الحبابي



دفاتر غدوية

دار المعارف

دَفاتِرُ غَدَوِيَّة

الدَّفْتَرُ الأَوَّل
أَزْمَةُ القِيَم

محمّد عزيز الحبابي

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تصدير

منذ صدور كتابنا عن الغد و«الغدية» (demainisme) [1] أفضت بنا التجارب والتأملات إلى تعميق الرؤية وتجذيرها فى أرضية ثالثية.

وعندما نظمت أكاديمية المملكة المغربية ندوة دولية (نوفمبر ١٩٨١) حول: «أزمة القيم الروحية فى عالمنا المعاصر»، تقدمنا بعرض فى الموضوع، غير أن المباحث بقيت تلاحقنا بحدة وإلحاح، فاقتضت التحليلات إضافة دفترين:

الأول هو ما تقدمه الصفحات الآتية عن «أزمة القيم».

أما الدفتر اللاحق فسيتطرق لـ «أزمة النماذج»، انطلاقاً من مساهمة لنا فى ندوة دولية أخرى، نظمتها جمعية الفلسفة بالمغرب عن «الرياضيات والفلسفة» (أبريل ١٩٨٢).

نرجو أن تعقب هذين الدفترين دفاتر أخرى تكميلية، تزيد الموضوعات إخصابًا وتدقيقًا بأقلام إخوة ثالثيين يحبذون الخطاطة العامة للغدية.

إننا جميعًا نتحسس سبل المسيرة، إيمانا بأن التعاون من أجل التنظير ضرورى للتعاون على الإصلاح والإنقاذ.

* * *

---

(١) Le Monde de demain (Le tiers monde accuse), 1980.

تصميم الدفتر الأول

يقوم هذا العرض على عمليتين متكاملتين:

- رصد أهم أزمات العصر الحديث فى علاقتها بالقيم.
- البحث عن وسائل لمقاومتها، رغبة فى العلاج.

وبالإضافة إلى ذلك، جاء قسم ثالث فضرب مثالا بالإسلام.

للإسلام نظرية عن الإنسان والكون، وعن الإنسان فى الكون، كما له إمكانات عملية لتنسيق التواجد فى مجتمع بشرى يخضع لقيم شمولية قادرة على أنسنة العالم والموجودات.

القسم الأول

تشخيص أعراض الوضع

(أ) أزمات المعاصرة

- مدى الأزمات وأبعادها.
- عمق تأثيرها على القيم، وعمق تأثرها بالقيم (السلوك الفردى والعلاقات المجتمعية).
- ترابط الأزمات فى جدلية:
  * جدلية يتضخم فيها النفى.
  * جدلية لا تنتهى بتركيب.

(ب) القيم

- هى أركان المجتمع السليم.
- لكل قيمة إحالة على شبكة من القيم.
- مرجع مجموع القيم: الكرامة الإنسانية والصدق فى المواقف.
- مرجع مجموع الشبكات: الضمير.

(جـ) إزاحة الأنقاض

- من جدلية انفصامية إلى جدلية تواصلية.
- توظيف القيم ضد الانحرافات.
- لا أمل إلا بتغيير شامل لمحيط الحياة.

(د) سلبيات الحلول المطبقة حاليا

- التجربة الليبرالية.
- التجربة الاشتراكية.
- هل من بديل؟

القسم الثانى

فى سبيل الإنقاذ

(أ) الإيمان

- بديل شمولى.
- مشروعيته نفسانيًا ومجتمعيًا.
- تذويب القيم.
- انعكاس دينامية القيم فى المعاملات.
- لا عقلانى؟

القسم الثالث

طاقات الإسلام
(بديل نظرى وعملى)

مدخل عـام

«أزمة» لفظ يروج كثيرًا، ويستعمل، فى أغلب الأحوال بصيغة الجمع: أزمات اقتصادية، أزمات مجتمعية، أزمات سياسية، وأخرى عصبية أو نفسانية. بيد أنه قلما يتحدث عن أزمة/أزمات أخلاقية وروحية. ومن الغريب أنه، بقدر ما يروج لفظ أزمة، وبقدر ما يتمطط مفهومه وتتعقد معانيه، إن المفهوم هو نفسه «يتأزم».

قبل التشخيص، يجب أن نحدد مفهوم «قيمة».

إن الشر هو أول ما يُقدِّم الواقع للفكر ليفتنه. يتابعنا الشر ويخيفنا لأنه يتربص بنا الدوائر، فى كل لحظة، عند أى فعل.

فالذى يعى هذا الوضع يعرف أن الشر يلاحقه، ويعى، فى الوقت نفسه، وجود القيم. فلا نحكم على أى شىء أنه ضار، أنه خيبة، أنه شر إلا لأننا نتصور أوضاعًا وأفعالا ننتصر فيها على الشر. إن الشر يسكن البشر ويحيط بهم، ولكنهم لا يتصورونه إلا فى ارتباط مع ما ليس شرًا، إنه نسبى ما دام عرضيًا قد يحصل كما قد يحصل ما يناقضه.

فلابد من معيار يبلغ حدًا من البداهة نحتكم إليه عندما نريد أن نفرق بين ما هو خير وما هو شر. ذلك المعيار هو القيمة.

بالقيم نميز ما يجب رفضه أو تجنبه وما يجب تقبله، وعندما تغيب القيم، نغترب فى متاهة الاختيارات بين ما ينفع وما يضر، بين ما هو قابل للشمولية وما هو نابع عن رغبة عارضة خاصة. إن القيمة غاية نرمى إلى تحقيقها وإليها نرجع فى أحكامنا على الأفعال والأحداث، وبها نُقيِّم، وعلى هديها نقوّم.

فعلى عكس الواقع، إن القيمة ليست مجموعة من المحسوسات الخاصة، وليست وجودًا فرديًا ولا شخصيًا. إنها مقولة وجودية، ولبداهتها، فهى نمط ذهنى ونمط سيكلوجى ونمط أخلاقى.

أهم القيم هى الجمال، والحقيقة، والخير، يدرك العقل - العليم بفطرته - هذه القيم الأساسية إدراكًا أكسيوماتكيًا. ويبلغ هذا الإدراك حدًا قويًا كلما صادمنا عائق مادى أو معنوى، فنضطر إلى مقارنته، بعد دراسته.

وبما أن الفلسفة وصف للتجربة، والتجربة متعددة الجوانب وتختلف كثافتها مع كل جانب، فإن تقييم أية تجربة يقاس سيكلوجيًا، ومجتمعيًا، وأخلاقيًا. وهنا تدخل القيم لترمم الأنا وقد شققه العائق، وأدخل ع. . الانفصال. فالأنا المشقوق لا يلتحم إلا إذا استعاد قدرته على التناسق الذاتى،

طبقًا لمعايير يطمئن إليها، أى لقيم تتمتع بالشمول حيث ارتضاها المجتمع. إنها عملية تجند الإرادة والوعى فى رؤية متكاملة، هى محتوى الضمير. ومنها تكتسب القيم حرمتها وترغمنا على التعلق بها.

* * *

يروج بكثرة التأكيد أن القرن العشرين قرن أزمات.

إنها قولة لا ريب فيها: القرن الحالى متأزم ومؤزم، وإن سرعة تتابع الأزمات وتكدسها توازى سرعة ما يبدعه من نمو تقنى وإعلامى. لذلك نتساءل هل هذا الترابط المتوازى أصل وسبب لما تعانيه الإنسانية من أزمات (شعور بالاستلاب وبالتنافر بين الأفراد وبين الدول)، أم أنه نتيجة لتلك الأزمات.

وفى كلتا الحالتين (الأزمات أسباب أو مسببات للأوضاع المتردية). يواجهنا مشكل آخر: هل الأزمات تعكس معنوية الأفراد والجماعات (القيم الأخلاقية والقيم الروحية)، أم أنها تنعكس عليها؟

يظهر أنهما تتأثران، بحيث كلما تأزم قطاع مجتمعى كانت له ردود فعل على الأشخاص (قلق وحصر وتوتر...) وعلى العكس، كلما ابتعد الفرد عن القيم الشمولية، وخضع لسلطان الأنانية والشوفينية والتعصب، تفككت عرى التواصل والتعاون والتآخى.. والكرامة الإنسانية تكمن فى المحافظة على انسجام كل أبعاد الكائن البشرى (المادية والفكرية والروحية). وبمجرد ما يتسرب إليها الخلل، يحصل تصدع فى الشخصية، مع شعور بالعزلة تتولد عند قساوة العواطف، وتمرد مستمر على كل شىء، وعلى كل الناس، ويتقوى بقدر ما يبتعد الشخص عن القيم والأطر التى ينتظم بها سلوكه، وتتحكّم إليها المعاملات المجتمعية.

لقد بلغت الإنسانية، فى الربع الأخير من هذا القرن حدًّا مفجعًا من التصدع نتيجة التغافل عن القيم.

أصيب الإنسان المعاصر بشره مثل شره (فاوست) الذى باع روحه لـ(ميفيسطوفيليس) الشيطان المريد، مقابل تكنولوجيا زاحفة ولذات لا تنتهى[1]. هكذا دخلت إنسانية اليوم مغامرات أفضت بها إلى أزمات لا تحد ولا يُعرف لها حل. إنها أزمات تتوالد باستمرار وتلاحق الأفراد والدول.

* * *

هل من منقذ للمجتمعات الحالية من الشرنقة الذاتية التى تأسر «الأنا»، ومن الشرنقة الجماعية التى تحشر الدول فى متاهات بلا مخرج؟

---

(١) فاوست (Faust) بطل خرافة جرمانية استغلها كتاب كبار عديدون، أشهرهم (مارلوف) الإنجليزى (١٥٨٨) ثم دخلت الآداب العالمية مع جوتيه الألمانى (١٨٣١).

فلا الليبرالية، ولا الاشتراكية، ولا أية فكرلوجيا أو فلسفة، أظهرت قابلية على الهَدْى والإنقاذ.. اتجهت الأبحاث عن الحل الناجع، ومرت السنون بلا طائل، حتى فشى اليأس. وقتها ارتأى البعض الاتجاه إلى تجربة الإيمان كبديل.

إن مناقشة هذه الإشكالية، من جل أوجهها، هو موضوع الصفحات التالية. سيحاول القسم الأول أن يقوم بتشخيص بعض أعراض الداء (الأزمات) أما القسم الثانى فسيقترح مشروعًا للعلاج.

القســم الأول
تشخيص أعراض الوضع
مدخـل

تعرض لمفهوم «أزمة» كثير من المفكرين المعاصرين، على رأسهم ماركس ونيتشى وفرويد و(هوسِرل):

الأزمة تمزق فيما هو كائن، وغالبًا مع تردٍّ للوضع، انزلاق من حسن / عادى / طبيعى إلى قبيح / غير عادى / غير طبيعى. تحصل أزمة فى ميدان العلوم، أو ميدان الأفكار عندما يدخل خلل على التناسق الداخلى للمنظومة بظهور عنصر جديد، أو تناقض بين الأسس (المصادرات والفرضيات...). إن الأزمة عتبة ينطلق منها التنظيم الجديد أو مقاومة الخلل الطارئ.

الأزمة، أخيرًا، صراع بين المبادئ والتطبيقات. وقد تتجلى أزمة ولا نعرف لها أسبابًا، أو تكون لها أسباب إلا أنها خالية من المعقولية، فيصاحب الأزمة شعور بالعبث.

* * *

الفصل الأوّل

انحرافات خطيرة

لقد عرفت الإنسانية أزمات مختلفة الأجرام والأشكال، على طول العصور، إذ لكل جيل أزماته، وإن أطلقت عليها أسماء متباينة. لكن الفرق بين تلك الأزمات وبين أزمات هذا الربع الأخير من القرن العشرين، هو أن لهذه الأخيرة كثافة بلا مثيل فى الماضى وأفقا ذا أبعاد بلا نهاية، إلى حد أن ما تحدثه اليوم أزمة من ردود أفعال يتجاوز إطارها ليشمل أكثرية الشعوب، ولا أحد يقدر على إيقاف أخطار أزمة ما، ببلاد ما، لكى لا يؤثر صداها عالميًا. وبما أن للأزمات المعاصرة تماوجًا سريعًا يجرف باستمرار المراكب والشواطئ من غير راحة أو استراحة، فإن الصعوبات والآلام تتلاحق وتتراكم بتوتر يمنعها من المرور العابر، ويرغمها على أن تتلاحم وتتجذر. ومن كثرة ما تعوّد المعاصرون على استساغة الأزمات، وتمثلها، أمسى مناخهم المعنوى والذهنى ملوثًا ومستعدًّا لتحمل عواقبها، باستسلام خانع.

أما الوجه الآخر للمناخ المعنوى لدى المعاصرين فهو أنه، بالإضافة إلى كون أية أزمة لا تغشى مجتمعًا حتى تتولد عنها أزمات لا مترقبة يمكن التأكيد أن الميزة الكبرى للمعاصرة، فى المرحلة الحالية، هى تكاثر الأزمات وكلها مستعصية، وجُلّها مُعْد. إنها أزمات تخضع لجدلية توال وتكاثف تنتفى فيه أزمة (بصيغة المفرد) لتحل محلها أزمات (بالجمع)[1].

إنسان اليوم متأزم، لأنه لم يتمكن بعد من عقلنة أوضاع المعاصرة وأزماتها. فكل واحدة منها تكون جنسًا تتضارب فيه أنواع، وكل نوع يتحول إلى جنس،.. ولكثرة أنواع الأزمات فى تحولها إلى أجناس متنوعة يستحيل عليه إيقافها. وهذا ما يظهر عجز إنسان اليوم، برغم ماله من درايات علمية وتقنية.

* * *

تطبع كل أزمة، على مستويات مختلفة، السلوك الفردى والجماعى، حسب نوعيتها وكثافتها. ولكن لأية أزمة معالم تمكن من تصورها-تصورًا دقيقًا. لذا سنحاول، على الأقل، استجذاب النظر

---

(١) النفى، هنا فى المعنى الجدلى: الأطروحة، ونفى الأطروحة، ونفى النفى.

إلى البعض من الأزمات الأعلام لنزيح عنها، شيئًا ما، القناع، علمًا أنه من الصعب جدًا مسايرة التحليل إلى منتهاه.

* * *

وها أمثلة من تلك الأزمات - الأعلام - المعالم التى كلما ازدادت حدة عدائها للقيم الأخلاقية والروحية، نسفت قواعد الحضارة الإنسانية.

- الكذب (من المجاملات إلى النفاق):

قد أصبح الكذب نوعين: خسيس، وهو العادى المبتذل، و«نبيل»، وهو الذى يقوم على مبدأ مقبول، دوليًا، ويحظى بتقدير عام. ومما يُنعت به أصحاب النوع النبيل، «الدهاء» و«الحنكة» و«المهارة».. لكن، عندما يبرع ثالثى فى ذلك، يلقب بـ «ديماغوجى»، كأن لعيوب الكبار دائمًا ما يشرفها ويبررها مصداقًا للمثل المغربى: «فى كل الأحوال، ما يصدر عن الأستاذ مقبول وجائز، أما ما يصدر عن التلميذ فمرفوض ومكروه».

وللكذب «النبيل» ميزة أخرى من جراء ما أصاب المفاهيم من التباس: «حرمة العلم». ألا يقال «علم السياسة»، و«علم الدبلوماسية»؟، (على اعتبار سياسة ودبلوماسية من وجهة التصور العام: الكذب الأنيق!)

لقد تربع «جوبلز» كرسى وزارة الإعلام، أيام هتلر، فأحيط بتقدير مفرط من لدن الألمان والبعض من غير الألمان، لأنه أحسن توظيف الكذب فى الدعاية للنازية؛ وإلى الآن ما زال يُذكر بإعجاب لـ «حنكته» فى سيكولوجية الشعوب والسياسة، ولـ«حساسيته» الديبلوماسية!..

ونشاهد اليوم، فى كل الدول، أن الصحافة اليمينية واليسارية، الحرة والرسمية والشبيهة بالرسمية، تتناقض، ويتهم بعضها البعض بالزور والتزوير، وإن كان ذلك لا ينفى وجود صحفيين شهداء بالحق ودعاة لمقاومة البهتان.

انتشرت عدوى الكذب المبجل، على كل المستويات. وقدوة بالسامين، عندما يكذب البقال، أو الحمال، يعتذر بأنه ليس أكذب من كبار القوم.. ولكن، من يجرؤ أن يقول للسبع إن «بفمك رائحة كريهة»؟

هكذا ارتفع الكذب إلى مستوى عرف مجتمعى قاعدى، وكأنه من المبادئ المعترف بها (باسم المصالح العامة العليا) فانشقت الأخلاقيات. إن الكذب سبب مباشر فى أزمات القيم، وعائق فى طريق الحقيقة، يرغمها على الإنسحاب النهائى أو المؤقت، كما يضلها لتسير على غير هدى.

يتعود الفرد والمجتمع على الكذب حتى يصير عنصرًا فى السلوك الخاص والعام. ويتدرج القوم يكذب بعضهم على بعض (مجاملة أحيانًا، وخداعًا أخرى). وقبل أن ينتهوا إلى أن يكذبوا دون قصد، عفويًا، لأن الكذب تطبع مجتمعىٌّ، وبات محايدًا بالنسبة للأخلاق، وللقيم.

كان يحلو لـ (جوبلز) أن يكرر ويؤكد أنه بقدر ما تعظم الكذبة وتكون مريحة، خارجة عن العادة، بقدر ما يصدقها السامعون. فتقيته الإعلامية هى: كيفوا الكذبة ثم ضخموها!

هنا مظهران خاصان من الكذب إذن: يتسرب الكذب فى السلوك، من جراء الكثرة والتعود (الجانب الكمى)، أما ما يريده (جوبلز) فهو نوعية الكذب (الجانب الكيفى). وعندما يتمرن الفرد على النوعين، يصبح يكذب حتى على نفسه إلى أن يصل إلى عتبة قصوى، فيصير مغترًّا بكذبه. قد يحسن المغتر بكذبه تكييف كل كذبة حسب المقام، إلا أنه لا يهتم بتقييمها حسب المضرة والمنفعة، الخير والشر. إذ ذاك يصاب بذهان هذائى (برانويا) يفقده القدرة على تمييز الصدق من الباطل، فتنمحى الحساسية أمام القيم.

ومن الأعراض الرئيسية للبارانويا، هذيان ثابت ومنظم: يظهر المريض سليمًا من حيث القدرة على الاستدلال والمحاجة، لكن أحاديثه تقوم دائمًا على حجج باطلة، إذ الغاية الكاذبة تعتمد، بالضرورة، على استدلال ومعطيات كاذبة.

ومن الأعراض الرئيسية للبارانويا، هذيان ثابت ومنظم. يظهر المصاب سليمًا من حيث القدرة على الاستدلال والمحاجة، ولكن أحاديثه تقوم دائمًا على حججٍ باطلة، إذ أن غاية كاذبة تعتمد، بالضرورة، على استدلال كاذب ومعطيات كاذبة. والعكس هو أيضا صحيح: عندما ينطلق الفرد من حجج مزورة لابد أن يخرج بنتيجة كاذبة.

ومما تجنيه المجتمعات التى يسودها الكذب المزمن، انتشار النفاق، وذوبان الثقة بالغير، وبالنفس. فلا غرابة أن يصاب المعاصرون بالتَّجَهُّل (البارامينزيا)، حيث يستحيل التعرف على الواقع، ويصبح الشعور مضطربًا أمام ما هو معروف ونافرًا منه، أو معارضًا بالإعراض عنه (من ذلك اللا مبالاة بالقيم والفضائل، وأحيانًا الإجهار بمخالفتها). إن غياب القيم، أو فتورها يزرع، فى كثير من الذهنيات، بذور عالم «ما عْلِيشْ»، فى معنى اللامبالاة والتنازل الذى يفضى إلى الانهيار، ويفكك روح المواطنة، وتسود الفردانية والأنانية، فيمسى لكل فِعل «بقشيش» تعويضًا عن الإفلاس.

أليس فى ذلك ما يبرر وصف الكذب بـ «أم الخبائث»؟ إنه منبع جل مساوئ هذا العصر.

* * *

جاء فى تقرير لنادى روما الدولى أنه، برغم الأزمات والتعقيدات:

«هناك اتجاهات إيجابية كثيرة يمكن رؤيتها فى الأفق.. فالحكومات تلتقى اليوم، لا لتقتصر مناقشتها على السياسة الكلاسيكية للحرب والسلم، ولكن للبحث عن حلول لمسائل عالمية كانت تعتبر، حتى الأمس القريب، مسائل داخلية محلية معزولة، ولكنها أصبحت اليوم ترتبط بمصير مشترك. وهناك مناقشات كبرى تبعث فى السلام الدولى وتجرى فى مؤسسات أنشئت أصلا بعد الحرب العالمية»(٢).

(٢) التعلم وتحديات المستقبل، إعداد ج. و.. بوتكن، ومهدى المنجرة و.مالتزا. ترجمه إلى العربية عبد العزيز القوصى. القاهرة، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨١ ص: ٢١٠.

إنه تفاؤل يقوم على مغالطات:

- تنعقد «المناقشات»، تحت إشراف الغرب وبتوجيهاته،
- يكون التأطير العام غربيًا، وكذا المصاريف المادية،
- وبالطبع، لا يستحوذ على سلطة اتخاذ القرارات إلّا المؤطّر والمموِّل، فيضعها حسب مصالحه.

أن تجتمع دول صغرى مع دول كبرى لمناقشة قضايا مشتركة شيء جميل، لكن، على شرط أنْ تتخذ القرارات لصالح الجميع، وأن يخضع لها القوى، ولو لم تعجبه، وألّا يستعمل حق (الفيتو) بمجلس الأمن، ويحرك بيادقه ليحول الأكثرية إلى أقلية...

إن الاجتماعات والمناقشات وحدها لا تحل المشاكل، ولا تنتصر للحق والواقع.

ماذا حققت مناقشات «حوار شمال - جنوب»، والمؤتمرات العالمية حول مياه البحار (والأمثلة تفوق الحصر)؟

نعم، عززت الإلكترونيات الآمال فى الانتصار على التخلف الاقتصادى، لكن الدول العظمى مَا تزال تعارض الباكستان والعراق وغيرهما من الدول الصغرى التى تحاول اقتناء اليورانيوم والأجهزة التى تساعد على تجاوز التقنيات التقليدية. فكأن أبواب المستقبل مرصودة أمام العالم الثالث وأسندت حراستها لوكلاء، تولوا الوكالة بقرار أبدى غاشم لا سبيل لفسخه.

* * *

عالمنا عالم يكذب على نفسه، ويعمل على أن يصير الكذب الدولى عرفًا. تجتمع الأمم المتحدة لإرساء السلام والأخوة، لكن الظاهر أنها تعدد الثغرات التى تفرق بين الدول، فالجميع ينافق فى كليات وجزئيات ما يتناوله.

* * *

زوايا النظر مختلفة. فمسلمات كل دولة تخالف مسلمات الدول الأخرى، إن لم تعارضها، والكل يدافع عن مصالحه بحدة، وأحيانًا بتهديد (وإن كان الواقع لا يخول الجميع الحق على التهديد والتخريب!) فحتى فى السلبيات، هناك أصحاب امتيازات وهناك المنبوذون! لا دولة استطاعت غض النظر عن زاويتها الخاصة، إلا فى الأحوال التى تفرضه عليها دولة عظمى، بعنف الأسلحة العسكرية والمالية والغذائية.

إلى متى حياة جبروت العمارات الضخمة والرفه المتطرف يستفزان حياة الأكواخ والبؤس المدقع، تحت سيطرة شرائع الغاب؟

لقد اضمحلت الرحمة والمحبة والتعاون وتقادم العهد على: «أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك».(٣)

---

(٣) حديث نبوى.

فشلت الاستراتيجيات المجتمعية الحالية، ومعها فشل الإنسان المعاصر، وأن الطريق شائك ومظلم، وكل خطة تؤدى إلى أزمات أكثر تعقيدات وأسوأ أثرًا، فلا تفاؤل، ولا أمام. ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(٤). لم يبق إلّا مخرج وحيد وحقيقة ثابتة وحيدة: ضرورة البحث عن أخلاقية جديدة تعيد للضمير مركزيته فى الحياة، وتنظيف الذات.

سُئِل مرة نبى الإسلام:

- «يا رسول الله:
- هل المسلم يزنى؟
- نعم.
- هل المسلم يسرق؟
- نعم.
- هل المسلم يكذب؟
- لا!».

* * *

يُدخل الكذب اعوجاجًا قصديًّا على الحقيقة. إلا أن هناك فهمًا بديهيًّا للحقيقة. تفضيل بديهى على الزور وعدم الصدق، إذ البصيرة أو الضمير يبقى يقظًا يزن الأحكام والاختيارات، ويقيم النية التى تصاحب أى فعل. قد تكون المعطيات التى يعتمدها الضمير غير واضحة أو غير كاملة، فيغلط التقييم. مثلا، هذه ورقة مصرفية من عيار ١٠ دراهم. فإما أعرف أنها مزورة، وأدفعها لغيرى، فأكون كاذبًا، وإما أجهل حقيقتها فأرتكب مشاركة فى التزوير، بترويج ورقة مزورة، ولكنى لست كاذبًا، لأنى لم أتعمد إخفاء الحقيقة، لأن الضمير لم يتخذ قرارًا ضد الصدق، ولم يخالف أية قيمة. سيكلوجيًّا، إن الحقيقة تصور، وحكم، واختيار. إنها ما يتم فى الوجدان بمعرفة حرة.

فما هو طبيعى، لدى الإنسان، هل الصدق أو الكذب؟

كل ما هو طبيعى فى الإنسان يصبح بالضرورة مجتمعيًّا. وبما أن الكذب مضر بالحياة المجتمعية، لابد أن يكون، على المستوى الفردى، ضارًّا كذلك. إن الصدق قيمة، كالحقيقة التى هى أحيانًا وصف وأحيانًا قد تكون مرادفة له، لأنها كما قدمنا، تصور، وحكم، واختيار. أما معيار الصدق فهى البداهة. فلولا البداهة ما حصل انسجام واستمرارية، سيكلوجيًّا ومجتمعيًّا. من هنا شمولية القيم، والنفور طبيعيًّا من الكذب. فالكاذبون يكذبون، ويكرهون أن يكذب عليهم غيرهم. فحتى الطفل يصفر وجهه ويضطرب كلامه عندما يكذب، كأن وازعًا داخليًّا يؤنبه، لو كان مِن طبيعة الكذب أن يخيف ويزعج. الكذب معاناة لأنه تناقض واع. يحاول الكذب أن يتجاوز التناقض فيشعر (الأنا) بتناقض آخر بين التصور للوضع أو للحدث، وبين التصور الذى يصنعه هو ليقدمه للآخرين على أنه صدق.

---

(٤) قرآن كريم.

ولأن الكذب اصطناع، تزوير للواقع عن قصد، فهو إرادى، وبالتالى يغامر بالمسئولية. فالكذب فى فترة ما من مراحله، عبء. وعندما يحس به الكاذب كذلك يتألم ويحاول التخلص منه.

إن الكذابين المحدثين لا يتألمون، ولا يعرفون معنى الندم والتوبة، لأن الكذب فى أعراف السياسات الحالية والمعاملات الاقتصادية والدبلوماسية.. يتناسى سلبياته، ولم يعد يقاس بالقيم المعنوية، بل بقيم الدخل والرقى فى المناصب واكتساح آفاق اقتصادية. إن ريح الجنوب أخت لريح الشمال. ولا عاصم من الانحلال اللا إنسانى. الكذب قوة تُصرف فى منافع أنانية، إلا أن هذه الأنانية لم تعد فردية، بل شملت مجموع أفراد المجتمع. إنها إمارة عدوى تحرق الأخضر واليابس. الكذب قوة انحطاط تجند جل القدرات الفكرية، فتبذر الطاقة الذهنية. إن الذرائعية خداع (الأنا) لذاته، لأنها تضع غايات مسبقة على المعطيات، أو فى تآن مع المعطيات، متناسية ما سيحدث عنه تفاعلها بمعطيات الآخرين. المنفعة الخاصة تقضى على المنفعة العامة.

لقد أصبح من الأعراف أن الكذب الناجح علامة على النباهة وقدرة (الأنا) الفردى على أن يكتسب وضعًا مجتمعيًّا يشهد له برفاهة الحس. فالكذب الناجح من امتيازات القوم الراقين ذوى حدة الذهن... والجامع المشترك بين الكذبة الراقية وغير الراقية، هو كون الجميع يعتقدون أن القاعدة الأساسية فى العلاقات العامة هى الحذر من الغير.

من الأنانية إلى الشوفينية

بعد أن لم يعد الكذب من «القبائح المحرمة»، وامتهنه الجميع، افتقد الأفراد الثقة فى الشاهد والشهادات، وفى المنبئين و«الأنبياء» وفى «كلمة الشرف»، بل، وحتى فى تصريحات الكثير من القادة والزعماء. وافتقد هؤلاء الثقة فى النفس، فانحل التعامل المجتمعى. لقد أمسى الكل حذرًا من الكل، وتركزت الأنانية كقاعدة مشروعة. وكلما سيطرت الأنانية على حساب المحبة والأخوة، انحلت عروة التعاون العالمى. ذاك هو ناقوس الإفلاس: إن القيم فى احتضار، ومعها الحضارة المعاصرة.

عندما تعم الأنانية، يظهر مركب نفسانى يتبدى فى عمليات مد وجزر جماعية، بمعنى أن كل فرد ينغلق على ذاته ومصالحه الخاصة، وفى نفس الوقت، يتحالف تحالفًا أعمى مع مواطنيه بشوفينية تصم عن سماع الحق، وتعمى عن الإنصاف. وقلما ينتقد الناس ذلك المركب المضاعف، أو أحد طرفيه، بل كثيرًا ما تُبرَّر الأنانية بأنها «شطارة» فى عالم يخضع لصراع المصالح. كما توسم الشوفينية بتشريف صاحبها لأنها «وطنية»، والوطنية قيمة وفضيلة. وهذا أيضًا انحراف أخلاقى.

أليست الوطنية الحق محبة الوطن والمواطنين، ولا محبة بلا صدق، ولا صدق دون تعلق بالحق.

«قل الحق ولو على نفسك»،

وعلى مواطنيك. فمن يحب بصدق، هو من يعمل على هدى المحبوبين وإنقاذهم.

* * *

هكذا غيرت مفاهيم عن مواضيعها، مثل: «مصلحة» و «وطنية» و «محبة»، وغيرها كثير، لأن استراتيجية الكذب تقتضى الإبهام.

وقد تسرب الإبهام إلى لفظ «شوفينية» نفسه، لأن بعض مستعمليه ضيقوا مفهومه أكثر من اللازم، وحصروه فى «الوطنية المتطرفة»، فى حين يعتبر شوفينياً كل من يبالغ فى التعصب لمعتقدات دينية أو سياسية، أو لفلسفة أو لفكرلوجيا، بوتوقية عمياء. وشوفينى، كذلك، من يتطرف فى الرفض المطلق لأى رأى أو عرف ليس عليه قومه. فالشوفينية تعصب متطرف حاقد على الغير، لأن هذا الغير مغاير، لأنه آخر... فالنعرة القومية ليست إلا واحدة من النعرات التى تشملها الشوفينية.

حقاً، عرفت فى الماضى شوفينيات. لكن القرن العشرين عَزز تلك الأصناف، عدداً وامتداداً. كانت الحروب الصليبية، مثلا، تمتد زمانياً، وبرغم ذلك لا يحصى فى أية منها أكثر من مئات القتلى والجرحى. فى حين، حصدت الحرب العظمى الثانية (الفاشيستية والنازية من جهة، والليبرالية والبولشفية، من أخرى) واحداً وستين مليونا من البشر، دون ملايين المعطوبين، ذوى العاهات المرئية والمستترة، والمصابين بصدمات عصبية أو نفسانية!

المزاحمات

نعطى حلاً آخر عن الانحرافات الخطيرة التى تغذى الأزمات الأخلاقية والروحية: المزاحمات.

لقد اقتضى مجتمع الاستهلاك أن تتحكم المردودية فى العلاقات الخاصة والعامة، فنتج عن ذلك تفضيل الكم على الكيف، سواء بالنسبة للاهتمامات الفكرية أو المعاملات. وبقدر ما تستقر تلك النزعة فى المعمل والسوق، بل وحتى فى المنزل، بقدر ما تبتعد عن تقييم الأعمال والعمال تقييماً أخلاقياً، إذ القيمة فى الأخلاق ترتبط أساساً، بقصد الفاعل: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[(٥)].

على عكس المزاحمات التى تقوم على الاحتكار، والمضايقة، والحسد... فإن المنافسات لا تعادى الأخلاق ولا الطبيعة الإنسانية السوية، بل تشجع على التعاون. وإن الاستعمال القرآنى يجعل «تعاون» مرادفاً لـ«تنافس»[(٦)].

المزاحمة نسق ينطوي على خدعة ضد الأخلاق: باسْمِ حرية الفرد، وتشجيعاً له على اتخاذ المبادرات، تترك المجالات مفتوحة أمام الجميع، بالتساوي. حقا، المجالات مفتوحة، ولكن ليس جميع الأفراد والدول مهيئين (بالتساوي) للمغامرة. فلا ينجح فى المزاحمات إلا الأقوياء. إذن عندما يطلق العنان للمزاحمات، دون قيد أو شرط، تغدو فوضى، كحرية القطيع، لا الحرية المقننة بتشريع يحدد واجبات كل فرد وحقوقه، ويحدد وسائل حماية المستضعفين كيلا يكونوا ضحية الحرية المطلقة التى يكتسبها القوى من تضخم قواه. فكل مزاحمة لا تضبطها تشريعات تعد رجعة إلى قانون الغاب

(٥) حديث نبوى.

(٦) قرآن كريم (المائدة).

(الغلبة / الحق للأقوى). وهذا ما يطبع القرن العشرين، إذ تشاهد تزايد تقلص الجانب الإنسانى (القيم الأخلاقية والروحية) بسرعة فائقة لفائدة المصالح المادية والسلطة، وكأن القيمة الحق هى قيمة البورصة، دون سواها من القيم(٧).

إن المفارقة هى أن بعض المسئولين الغربيين لم يدركوا بعد أخطار المزاحمات على الطبائع البشرية، وعلى العلاقات المجتمعية من جهة، وعلى التعامل الدولى، من جهة أخرى. فالتقرير الذى قدمته فرنسا لمؤتمر فيرسايْ (جوان ١٩٨٢) حول «التكنولوجيا والتشغيل والتنمية»، لم يجد ما يقترحه لإصلاح الأزمة الاقتصادية العالمية، والأزمة المالية الناتجتين عن الثورة الصناعية الثالثة، سوى الرجوع إلى المزاحمات وتشجيعها، عوضا عن المنافسات والتعاون.

ويدّعى التقرير الفرنسى أنه استوحى هذا الحل من تجارب التاريخ. فمن الملاحظ حسب استنتاجاته، أن التقدم ينتهى دائمًا بخلق وظائف للتشغيل أكثر مما يهدم. إن منظار المستقبل غير مغلوق، بالنسبة للعالم الرأسمالى، والتقدم الآلى لا ينتج عنه، ضروريًّا، تكاثر البطالة.

ويتطرق التقرير إلى فضائل المزاحمات ومزاياها كـ «عنصر فعال وأساسى للتنمية»(٨).

إن الاقتصاد الليبرالى، منذ بدايته وهو يقوم على المزاحمة. فمتى كان الداء دواءً؟

بما أن التقرير يستشهد بالتاريخ، نلاحظ أن التاريخ الحالى يؤكد أن الفرنك الفرنسى فى مهب الهواء، والخوف عليه جم، وذلك من جراء مزاحة الدولار الأمريكى(٩). على أن الاستشهاد بالتاريخ غير وارد هنا: فما كان فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين لن يفيد فى شيء لأن التاريخ غير واقف / قار. إن ظروف اقتصاديات ١٩٨٢ ليست هى الظروف التى مرت عبر «التاريخ».

* * *

لم تمر إلا أيام على اجتماع القمة بفيرساى، حتى بدأت المرارة تملأ قلب وفم الدول العشر بالمجموعة الاقتصادية الأوربية، من جراء مضايقات حليفتها الكبرى، الولايات المتحدة.

ترأس، فى ٢٢ / ٦ / ٨٢ السيد فرنسوا ميتران اجتماعًا وزاريًّا بالإليزيه، حذّر فيه الولايات المتحدة بلهجة عنيفة، لهجة اليائس الغضبان. لقد حذر الأصدقاء الأمريكيين من مغبة السياسة الاقتصادية العالمية التى ترمى إلى «مضاعفة أزمات أوربا»، لصالح الدولار الأمريكى. والاقتصاد الأمريكى. فمن طبيعة المزاحمات ألا ترحم ولا تراعى الصداقات والتعاطف، إنها منبع الأنانية والشوفينية «بيزنيس بيزنيس!». المزاحمات لا تثرى قومًا إلا على حساب آخرين. ذلك وضع أثبتته التجارب، فيجب أن نتقبله كما هو، بأزماته وشروره، أو أن نرفضه ونبحث عن بديل، دون ندم، إذ

---

(٧) هنا، منظر التحليل والمقارنات هو مجتمع الصناعة الثقيلة.

(٨) لقد حللنا مساوئ المزاحمة فى «من الحريات إلى التحرر»، القاهرة، دار المعارف، انظر على الخصوص من ص ١٤٥ إلى ١٧٣.

(٩) انظر: J. Thibeau, la France colonisée, Paris Flamarion, 1980.

لا وجه ثالث للقضية: إنه تناقض أصيل فى المزاحمة كمعطى مباشر أقرَّهُ التاريخ. فى ذلك التناقض تجد المزاحمات ديناميتها النخبوية: نجاح العمليات الاحتكارية، فيزداد القوى قوة، وينال الضعفاء الإفلاس. فلا مزاحمة بلا مفارقات. تنصب الجهود على مشروع، لكن ما تتحقق الغاية حتى ينمو الشره، ويتأجج الطمع فى إزاحة المزاحمين. فـ «التروسْت» نهوم لا يشبع أبدًا، ويخلق من المشاغل ما لا يترك مجالا لأى اهتمام آخر. إذ ذاك تفرز المزاحمة هومًا تلهى عن القيم (كالصداقة والتعاطف). وتنسيها لفائدة الصراعات.

* * *

لقد افتقدت الإنسانية ما كان لها من معان، كما افتقدت لغاتُها الدلالات الأساسية، فأضحى سلوك الكائن البشرى ملتبسًا. وغطى ضبابٌ مطبق شفافية التفاهم، كما أصاب القلوب جفاف فطمها عن الحنين والعطف. وبالرغم عن تقدم التقنيات الباهر، مازال الثالثيون، وحتى كثير من الكادحين بالغرب، مجبرين على العمل بلا توقف، وأكثر من طاقاتهم. لقد تحول الشغل من فعاليات تؤنسن، وتحرر المحيط البشرى، وتنمى سيطرة الإنسان على الطبيعة، إلى قوى عمياء تسحق البشر وتحرق الدماء والأعمار. نعم، الشغل هو الوسيلة لنمو المجتمعات ورقيها، ويقاس الرقى بنتائج تتكفل الإحصائيات بتحديد مقاديرها لتصدر أحكامًا تقييمية. إلا أن اهتمام الإحصائيات ينحصر فى الكميّات، بقطع النظر عما يصيب الكرامة الإنسانية من إهانات وجروح.

نسق عقلانى يبحث عن عقل

بعد الحديث عن الانحرافات، سنعمل الآن على تحديد وصفى وتقريبى لأحد الأسباب الرئيسية لأزمات القيم.

تشهد أواخر هذا القرن تقدمًا علميًا وتقنيًا يزحف بجيش من المعوقات تعرقل التقدم المستقيم، فينحرف، ومعه الإنسانية، إلى التعثر المعنوى والنفسانى.

من أبرز تلك المعوقات إسهام أثلاث العالم، عن قصد وبوعى أو عن غير وعى ودون قصد، فى اتساع الفجوة بين دول النمو الصناعى ودول التخلف. ويتميَّز هذا الإسهام بسرعة تتزايد مع الأيام، بل مع اللحظات، فمشكل المعاصرة المزعج هو السرعة.

لقد أفقدت السرعة العالم استقراره إلى حد أنه لم تبق للناس معالم، ولو مؤقتة، ليميزوا بين الأحداث والأحوال، ويستبروا محيطهم، ويستبطنوا ذواتهم. فكأن التاريخ لم يبق هو جملة الأحداث والأحوال التى يمر بها كائن ما، وجملة الظواهر الطبيعية، بل غدا مجموع الجهود التى تبذلها الإنسانية للانسجام مع السرعة. فالجهود تذوب، وتقلق الذوات فى مواجهة سرعة تسحق كل شىء فى طريقها، لا تبقى ولا تذر. إنها فِدية ثمينة: تضحى الحضارة الإنسانية بإنسانيتها، وتتخلى الثقافات القومية عن خاصياتها المميزة لفائدة عالمية عيارية «ستاندار»، قوامها تقنيات.

فى هذا الوضع تضطر الشعوب المتخلفة لأن تتنازل عن إرادتها أكثر فأكثر، تخاذلا أمام اللاتوازن

فى السير، فتخسر حتى الصفقة التكنولوجية!...

إن الأمم جميعًا ضحية فى تصارع مستديم بين دول قوية تتضخم قواها باستمرار، ودول متخلفة ينمو ويتضخم تخلفها بلا انقطاع. تضخمان فى اتجاهين منعكسين، لا يوفر أيهما راحة بال. فلا المتقدمون سعداء بطاقاتهم وثرواتهم، ولا البؤساء قانعون بأحوالهم. الجميع متذمر، فى عالم أنهكته أزمات متجددة، وباءت فيه كل محاولات المصلحين بالفشل الذريع، كأن لعنة حاقت بالإنسانية تعوقها عن السلام والسلم، وتذكى الأنانيات والشوفينيات.

فالأفراد والشعوب والدول، الجميع أضحى مجهول الاسم يبحث عن هويته.

إنه لخُلف منطقى أن نجرى وراء العبث، إلى يوم البعث!

***

فى أول هذا القرن، عندما كان سكان المغرب لا يتعدون المليون نسمة، كان مقياس السرعه العادى هو إيقاع سير الجمل أو الحمار، ومقياس درجتها القصوى هو جرى الفرس. وفى ١٩٨١ أصبح سكان المغرب أكثر من عشرين مليونًا، وانتقلت السرعة العامة من إيقاع سير الحمار أو الفرس، إلى إيقاع البوينج والكونكورد وغيرهما من الطائرات النفاثة. إنها انقلابات بلا مجال قار، تسير بالإنسانية إلى حيث لا تدرى، وسيبقى الـ «حيث» دون عنوان معروف مسبقًا.. جميع الناس يتابعون مسيرة التيه بخطوات شاردة.

***

حقًا، بفضل السرعة، ربح الإنسان المعركة ضد المسافات، فاقتربت الشعوب وانفتحت آفاق للتعامل العالمى والتعاون، إلا أن الملاحظ هو أن التقارب لم يستطع أن يخفى وجهه الشاحب المتشائم: فعوضًا من أن ينمى الإخاء الإنسانى والسلم العالمى، أخذ ينحرف أحيانًا كثيرة. إن عقد اجتماعات «حوار شمال - جنوب» عنوان على تقلص المسافات، فى حين تثبت المناقشات داخل الاجتماعات، أن الشوفينية والأنانية لم تتقلصا.. تنمو السرعة، وتنمو معها الأخطار المهددة للإنسانية. فمثلا، تتسابق الدول الكبرى فى صنع الأسلحة وتتزاحم على بيعها لصغار الشعوب، بل إنها تدخل مزاحمات طاحنة من أجل إرسال التقنيين للدول المستضعفة ليمرنوها على استعمال الأسلحة «العصرية» و «المتجددة».

وتقام مؤتمرات حول مياه البحار والصيد... فتستبد الدول الغنية بالحظ الأوفر من المصالح، وعندما تحتج الدول الضعيفة، يُدمس صوتها، وإذا اكتشفت إحدى هذه الدول الأخيرة بعض المواد الخام، عوضًا عن أن تستغلها وتسعّر لها الثمن الملائم، تحاصرها الدول الكبرى لتقتنى خيراتها بأبخس الأثمان. هذا علاوة على أن توزيع المواد الغذائية، كمًّا وكيفًا، غير عادل، كما هو غير عادل توزيع الإعلام، والأبجدة والتكنولوجيا. إنه عالم بلا عدل، بلا أمن، بلا مساواة، يقارن فيه الأفراد من حيث الثروة أو السلطة، وتوزن الدول بقوى السلاح والإنتاج الصناعى فحسب. أما القيم

الإنسانية الشمولية، فقلما يكون لها وجود خارج الشعارات.

* * *

من أجل هذا العالم نطالب بأن نضحى بكل ما نحن فيه لنصبح مجتمعا:

«يرمى نفسه فى المتاهة، يفقد كل مكاسبه ولا يزيح غير الضجيج [ضجيج الجينز] ودكاكين «الفلبيير» والهمبرغر والكوكاكولا والشوينكوم!...»(١٠).

نُتهم بأننا أصحاب ذهنية ميتافيزيقية فى الوقت الذى دخل فيه الغرب عصر التيلماتيكا.

إن التلماتيكا كمنظار للمستقبل، ليس بالنموذج المطلوب، بدليل أن الغرب ما زال يئن من الويلات، ولا يظهر آمالا وثيقة بالمستقبل.

جدلية متمردة

تناقضات، تضخمات، وسلم مسلح هنا، وحروب مزمنة هناك.. ذاك هو عالم اليوم، المفارقات تحاصر تصرفات الحكومات والشعوب، وحتى مقولات الفكر. فأزمات المعاصرة تتناقض، لا حسب جدلية ترمى إلى إبراز نقيض الأطروحة (فترة النفى) لتتجاوزها إلى فترة التركيب (نفى النفى)، بل تتحرك تناقضات الأزمات المعاصرة حسب جدل غريب لا يستبين به العقل الإيجابيات من السلبيات.فلو كان جدلا متوترًا نحو غاية حسنة، لأفضى إلى تركيب يجسد قيمة/ قيمًا، ولكانت الضدية ربحًا للمجتمعات البشرية، لا عائقا. أما الضدية التى تنبع من حرب الأنانيات والشوفينيات، ومن دعوة كاذبة لاحترام «حقوق الإنسان»، فتنزل بالناس عن القيم الشمولية،مسخرة العقلانية للدفاع عما يعاكس الحق والواقع، منحرفة بالعقل عن وظيفته الأصلية. هكذا تتفسخ القيم وتفتقد الاطمئنان، وبالتالى تفقد الحياة ملاحتها.

ذاك ما تشكوه المعاصرة التى تتمرغ فى مرارة الفراغ المعنوى والعاطفى.

إنه فراغ يشمل الشعوب المتخلفة، والشعوب المتقدمة المصنعة. بيد أن هؤلاء يجدون بعض التعويض فى التكنولوجيا وما تقدمه من خدمات لمجتمع الاستهلاك.

* * *

كثيرًا ما ينصحنا أصحاب الرأى السديد:

«خذوا التكنولوجيا عن الغرب وغامروا كما يغامرون، وسترون ما سترون..»

وبالفعل، يستعير الثالثيون التكنولوجيا، يشترون الآلات والخبرات، ولكن السنين تتبع السنين فى جعجعة ولا طِحنا! ذلك أن الإعارة ليست تملكًا. فالذى يشترى الآلات (بل المصانع، والمفتاح فى اليد) لا يمسى مالكًا للتكنولوجيا، لما وراء الآلات الذى هو الأساس.

---

(١٠) عبد الجبار السحيمى، العلم (١٧/٩/١٩٨١).

ما هو ذاك الطرف الغائب؟

إنه ذهنية قابلة للتكيف مع عالم التكنولوجيا، إنه تفكير تسيطر به تلك الذهنية على ذلك العالم، وتفكير يتجاوز به الكائن البشرى عالم الآلات ليخضعه إلى مصالح إنسانية معقولة، فيطوره فيتطور هو نفسه. هناك تفاعل بين التقنيات وبين الإنسان. أما فى العالم الثالث فلا تفاعل، بل مجرد فعل الآلة فى الإنسان. فلا يبدأ النمو والتقدم إلا عندما ينتقل الشعب من طور تحمل الآلة إلى التعامل معها.

ومن جهة أخرى، إن التكنولوجيا لا تُعطَى بل تكتسب.

فكيف يتم اكتسابها؟

الاكتساب يكون بالعلم والمهارة. فالمهندس المنظر، المخترع والمكتشف للآلات هو وحده القادر على تحسين أحوال التعامل معها. بيد أن العلم والإعلام والمهارات محتكرة، ولا يجود بها المحتكرون إلا بمقدار. ثم إن الآلات تحدد أثمانها، كما تحدد أثمان الخبرات التقنية، من لدن الأغنياء، وبالعملة التى يختارونها، وليس لكل الثالثين نفط وغاز و «بيطر و دولار».. على أن أصحاب هذه «الفضائل» هم أيضًا لا يجدون الأسواق مفتوحة دائمًا...

الفصل الثانى

طاقات القيم

يقصد من وقفتنا مع القيم تحليل معان تتصل بـ « قيمة » ما، لا تعريفًا لمفهومها، لأن قصدنا تحديد أدوار القيم فى الحياة. ولن تطول الوقفة، لأن الحديث عن القيم ملازم للحديث عن الأزمات كما يتبين من العرض.

ولكن للقيمة حدين متلازمين. إنها من جهة مجال، واتجاه، وقدرة على الردع والإحجام عن الضرر والشر، ومن أخرى، قدرة تحرض على المنفعة العامة والخير. إن مثَل القيمة الشمولية الحق، كمثل القدرة الكهربائية التى تتحول إلى طاقات كلما التقى تيار سالب بتيار موجب. وبما أن المجتمعات البشرية، فى الربع الأخير من القرن، لم تعد تستضىء من تلاحم التيارات الأخلاقية والروحية فقد طمس نظرتها للحياة وللكون ظلام اللامساواة، وغياب العدل والشعور بالانعزال فى انطواء.

إذن، يلزم تقديم ميزانية الإفلاس، كما يلزم الاعتراف بأننا نتوغل فى اللامعقول والغي. فبدون تلك العمليتين، لن نعى ضرورة التجند للإصلاح.

* * *

كيف ستتم إزاحة الأنقاض عن الطريق؟

يتجلى أول دور للقيم فى تمكين المجتمعات من تقييم الأفعال وتنظيم العلاقات البشرية، وبالتالى (وهو الدور الثانى) فى العزم على تقويم الاعوجاجات، الأصيل منها والطارئ. فمن وجهة نظر إسلامية، إن قيمة أى فعل مرتبطة بالقصد الذى يرمى إليه[1] (النية الحسنة أو السيئة)، ولو نتج عنه خطأ. « فمن اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر »، خلافًا للذرائعية التى لا تتصور موضوعًا ما إلا حسب ما قد ينتج عنه من آثار عملية، لا أكثر. إن الذرائعية لا تهتم بنية الفاعل، كأن الإنسان مجرد آلة إنتاج يحكم عليها بمردوديتها. فلو أعيد للقيم دور الحكم على الأفعال وتمييزها لاتضحت المقاصد، وتميزت معالم الحق عن معالم الباطل. إن المودة والطيبة لا تسكنان القلوب إلا عندما يحترم المجتمع القيم، إذ بالقيم تتبلور حدود الموضوعية والذاتية،

---

(١) أو القصدية فى الظاهراتية — l'intentionnalité en Phénoménologie

وحدود أحكام الواقع، وأحكام التقييم، فيزاح عن السبيل الحيف والتزوير. إن «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات»[٢]، وكل ما فيه شبهة قابل للفحص. فلو راعى علماء الكيمياء القيم الشمولية، وفضلوها على الشوفينية والبرغماتية لما عرف أهل هوريشيما وناجازاكى قنابل الذعر والدمار، ولو راعى علماء نازيون كرامة الإنسان لما قاموا بتجارب بيولوجية فى رَحِم النساء، ولما مزجوا فيه مني حيوانات عُجم لصنع أجنة مزيج من البشرية والحيوانية فى بطون كائنات بشرية. كما أنه، لو روعيت القيم لما ألقى ضباط نازيون بملايين من السجناء الأحياء فى محرقات الجثث..

فمع غياب القيم تغيب الكرامة وتستبد غرائز حيوانية بعواطف الإنسان. أليس بهتانًا ما يدعيه البعض من أن العلوم محايدة، إطلاقًا، بالنسبة لكل القيم؟

الجميع يعلم أنه برغم عن هذا الحياد، يتوقع على الدوام حصول أذى أو شر بالإنسانية.

أليس من الهمجية التأكيد بأن الغاية العلمية تتقدم على الغاية الأخلاقية؟

من مبادئ الفقه الإسلامى أن «درء الضرر مقدم على جلب المصلحة». وقد تأكد أن للقيم أدوارًا أساسية فى البحث (علميًا كان أو قانونيًا أو تاريخيًا) عن الحقيقة وتوجيه المصالح العامة، وبدونها ينحرف البحث عن الأهداف المتوخاة منه، ويخضع الباحثون للذاتية ولسلطوية العقل على حساب الواقع والحقيقة، وعلى حساب المساواة والعدل. يوجد حتى من بين أصحاب المنطق العلمى المعاصر، من لا يتناسون وجود القيم وديناميةأدوارها الفعلية، عند التفكير وعند إصدار الأحكام.

- تشييء أقوام من أجل نزوات آخرين

كيف يمكن أن تعود للقيم أنفاسها الأصيلة؟

قد يخطر بالبال أن الجواب البديهى هو: الرجوع إلى «حقوق الإنسان». إنه لجواب سحرى يتكرر فى كل مناسبة يحتد فيها النقاش حول قضايا سياسية، لاتهام «الآخرين» بأنهم لا يطبقون «حقوق الإنسان». ما أسهله من جواب - شعار! «كلمة حق أريد بها باطل».[٣] ويكرر الجواب - الشعار السحرى كأن التكرار كفيل بحل الأزمات.

نعم، يتحدثون عن «حقوق الإنسان» غير أنهم لا يحددون بالضبط أى إنسان يقصدون.

تنسب إلى «الإنسان» حقوق، لكن، لا يحق لكل إنسان أن يتمتع بها. وفى الأمثلة التالية دليل على الأوضاع المفجعة التى تُخجِل فينا الشعور بالانتماء إلى الإنسانية.

هل يعد «إنسانًا» من ينتمى إلى الثلث المنسى الذى يموت جوعًا، ومرضًا، وإهمالا، ولا يُعترف له حتى بحق الوجود الأدنى من «حقوق الإنسان»؟

---

(٢) حديث نبوى.

(٣) قولة لعلى بن أبى طالب.

هل يعد إنسانًا حقيقيًّا ذاك الكائن الذى سينتسب إلى مليار الأميين المنتظرين فى سنة ٢٠٠٠ (مليار من البشر لن يعرف كتابة ولا قراءة، فى أواخر قرن السمعيات - البصريات والعجائب التقنية !).

أيشمل مفهوم إنسان فى «حقوق الإنسان» الجيش العرمرم من المومسات المحترفات اللائى يبعن الهوى ومعه الشرف والكرامة تحت رعاية حكومات شرعية تتقاضى مكوسًا على أعمالهن؟

حقًّا، إن البغاء أقدم تجارة عرفها التاريخ، فلن نتعرض له هنا، كظاهرة مجتمعية كانت محرمة وممقوتة، وإنما سنقف عنده وقد أصبح عملية تستغلها هيآت تجارية تحت ظل تقنينات حكومية ترفع من شأن «المهنة» وتتغاضى عما صاحبها، طول العصور، من رذالة ومهانة وما تدخله فى الأسرة من تفكك وفقدان الثقة والحنان والحب بين المرء وزوجه..

فى ٨/٩/٨١، افتتح على الشاطئ الفضى بفرنسا، المؤتمر السابع والعشرون للفدرالية العالمية للإعتاق (أى تحرير المستعبدين). وكان مبحث الدورة هو «إعتاق البغايا من الاستغلال»، أى العمل على تحديد الوسائل الضرورية لانتشال النساء الضحايا من قبضة الشركات التى تقوم بنخاسة الرقيق (من مختلف الألوان). يُسخَّر شقاء نساء مستضعفات لاستغلال تجارى علنى، كما تستغل البضائع فى البيع والاكتراء. مثلا فى فرنسا، يبلغ الدخل السنوى من البغاء المكشوف (أى الذى تؤدى عليه مكوس) سبعة ملايير فرنكًا جديدًا (ما يعادل ٧٠٠ مليار فرنك قديم !...). إنه مبلغ مهول، وأهول منه أن أغلبه يذهب إلى جيوب الوسطاء، ولا يتبقى للمعنيات بالأمر إلا أقل من عشر الدخل العام.

القضية ليست قضية عهارة فحسب، بل قضية خزى مميت للضمير الإنسانى. أيليق بالحضارة الإنسانية المعاصرة أن تكون فيها الأعراض البشرية موردًا تجاريًّا استغلاليًّا رابحًا، تحتكر أسواقه أوساط «مريبة»؟ برغم «حقوق الإنسان»، ما أفظعه من وضع تشيًّأ نساء، ويسلبن حقوقهن، بعد أن يصبحن بضاعة عادية من البضائع التافهة التى يوفرها مجتمع الاستهلاك، تُعرض نساء على واجهات أروقة تجارية مرموقة فى أكبر شوارع العواصم العالمية، كما هو الحال فى المملكة الهولندية وبجمهورية ألمانيا الفيدرالية. تُعرض من جملة السلع المختلفة الرائجة، نماذج من «الجنس اللطيف» !!. وكما تقدم الأسواق العمومية أنواعًا من السمك (من السردين الصغير والنحيف إلى القاروس الكبير الدسم)، تقدِّم، كذلك، أنواعًا من البضاعات البشرية، السمراء والشقراء، السمينة والنحيلة، جميعهن عاريات بعض أطراف الجسد.

هل بقى للوقاحة فى سلخ الإنسان عن إنسانيته من مزيد؟

* * *

تتأسس فى المجتمعات «الراقية»، مافيات تنصب من الدخل والاستهلاك إلها أوحد. فبراءة الأطفال (حلفاء اليتم والضياع) تُستغل، وحاجات النساء المستضعفات (المنسيات من كل حماية) تُستغل استغلالا بلا اعتبار لأى حق أو مبدأ.

توجد حاليًا (ببانكوك) أمكنة مختصة تحترف فيها مائة ألف فتاة مهنة التدليك والتسنيد، وتتراوح أعمارهن بين ١١، ٢٠ سنة، كما توجد أسواق عالمية يباع فيها، أو يكترى، أطفال لمؤانسة الكبار.

فلا غرابة أن تتصاعد، فى خضم هذه الحضارة المتناسية للقيم الإنسانية، نسبة الشباب اللامنتمى المتمرد الجانح الحانق. إن مجتمع الاستهلاك يُهمش الضعيف فيتمرد ويحقد، ويعزز القوى فيبذر الأموال والطاقات والأوقات، وياما أكثر ميادين التبذير! لم تعد العهارة عهارة جنس فحسب، بل اتسعت لتشمل الذهن والنفس وجل المعاملات المجتمعية.

توجد شركات سياحية عالمية تهيئ لزبائنها وسائل (فنية) للتبذير كـ «رحلات جنس» (Sex–Turs) فتوفر لهم وسائل النقل والإقامة، والإشباع الجنسى(٤).

ماذا سيكون المصير غدًا إن استمرت هذه الشركات تعبث بكل القيم الإنسانية؟

إنه، إيعاز بأنْ لا حاجة للمغامرة فى البيت الزوجي مع رفيقة العمر.. فالشركات تكفى المئونة وتهتم بكل شيء، وليكن على حساب الأسرة، والتساكن الروحى، والحب الصادق، وشاعرية البيت، وصفاء العواطف! إنها تجارة تقبر الضمائر، بل تنسف إنسانية الإنسان الذى حوله تتمحور الأخلاق والقيم.

إنسان ونصف، وإنسان أضَاع نصفيه

تلك أمثلة على ما آلت إليه «كرامة الإنسان» و«حقوق الإنسان»، فى حضارة انصرفت عن القيم الروحية والأخلاق فأضاعت أصالتها، وحسمت العلاقة بالأمل والتفاؤل لفائدة أحلام وردية تذبل بسرعة ذبول اللذات البهيمية.

لقد غدا معيار النجاح فى الحياة، هو القدرة على الاستغلال من أى صنف كان، ولو استغلال الانحرافات الجنسية.

فالحضارة التى لا تحترم إلا القوة لذاتها، لا محالة إنها تُشقى القوى، كما تشقى الضعيف. فالفقر فيها لا يرحم، كما لا يرحم الظلم واللامساواة. لقد كبر جرم الأخطاء والأغلاط فى حق القيم الشمولية، فأقبرت قيم، وعلقت أخرى فى متاحف كلامية لا تخرج للساحة العمومية إلا كشعارات يُغلف بها الكذب والنفاق والخداع. فى هذا الجو المهزوز، أخلاقيًّا وروحيًّا، وجد الإجرام مرتعًا واسعًا وممهدًا فتمكن، وازداد عناق ذلك الجرم الثقيل.

ففى العواصم الكبرى، بالعالم المتحضر (أولا) وبالعالم الثالث (ثانياً) تعد الجرائم اليومية بالآلاف. ففى نيويورك مثلا، فى كل ثانية جريمة (ما بين صغرى وكبرى). وقد أعلن السيد (ويليام ويد ستجار) مدير المكتب الفيدرالى الأمريكى للشرطة أن عدد الأعمال الإجرامية قد ارتفع فى الولايات المتحدة سنة ١٩٨١ إلى ٤٤٠٠٠ عمل إرهابىٍّ.

---

(٤) مثلا، يفوق ما يدره البغاء، بفرنسا، على الخزينة العامة للدولة، بمليار على دخل نشر ما تبدعه عقول المؤلفين.

أما بفرنسا، فقد نما الإجرام بـ ١٣٪ تقريبًا، خلال ١٩٨٠، أى أن فى كل ١٢ ثانية تقع جريمة (فى حين أن النمو السكنى لم يتعد ٤١٪). تأتى باريز على رأس قائمة البلدان الفرنسية (٣٣ من ٥٠٨. ٢/٦٢٧ جريمة).

* * *

كل ذلك، والأقوياء (الأوصياء على العالم) يرددون الشعار السحرى «حقوق الإنسان».

لقد ملت الشعوب الشعارات. فمنذ ١٦٨٩، صادق البرلمان الإنجليزى على دستور «لحقوق الإنسان» بمقتضاه أصبحت الملكِية نظامًا اختياريًا عامًا، لا ديموقراطية (تفرضها قدسية مستقاة من الله). وفى ١٧٧٦، صوت الكونجرس الأمريكى على وثيقة تخول المستعمرات - المتحدة الحق فى الحرية والاستقلال، تبعتها سنة ١٧٨٩ وثيقة «Bill of Right». وفى نفس السنة ١٧٨٩ نشرت الجمعية الدستورية الفرنسية وثيقة «حقوق الإنسان والمواطن».

ومن ذلك الزمان الغابر، ماذا حل بالإنسان وبحقوقه؟

قامت الجمعية العامة للأمم المتحدة بمبادرة جديدة، بهذا الصدد، حيث وقعت على وثيقة جديدة ١٩٤٦، وفى عام ١٩٦٨، بالتعاون مع اليونسكو نظمت حفلات، بمناسبة اليوم العالمى «لحقوق الإنسان».

* * *

معنى هذا أن الإنسان ما زال يبحث عن حقوقه (دون أن يجهر بمن يضيعها عليه..) إن الوثائق والمبادرات بخصوص الموضوع كثيرة، والكلام والتصريحات حولها أكثر، أما تطبيق «حقوق الإنسان» فما زال فى عالم المنسيات.. لأن الكبار، الأوصياء على العالم، لا يسألون عن أحوال الصغار.

جاء فى المادة الأولى من وثيقة الجمعية العامة للأمم المتحدة: «كل الناس يولدون أحرارًا، ومتساوين فى الكرامة والحقوق..» فى أى بلد توجد تلك الحرية؟ فى أى بلد توجد تلك المساواة؟

هل بالولايات المتحدة؟

إن الملونين مازالوا يحلمون بها.

هل بأوربا؟

اسألوا عنها اليد العاملة الأجنبية بفرنسا وبلجيكا وهولندة،.. ملايين من المغتربين يتوقون إلى حد أدنى من الكرامة والمساواة.

ولولا غياب الحريات والمساواة لما فرت من البلدان الاشتراكية أمواج من المواطنين إلى ديار الهجرة بالغرب.

يبقى العالم الثالث، فمن الخير عدم التساؤل عن حقوق الإنسان، ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾!

هكذا، إن الإنسان بلا حقوق، إلا لمن لهم القوة على فرضها وفرض حتى ما ليس لهم فيه حق. إنه الخداع والكذب «المباح» و«السياسة» و«الدبلوماسية»...

* * *

عن تنامى الخداع والكذب والإجرام ينتج عناق ميول ملحة للّامبالاة، فسيطرت العنديات والكميات على كينونة المعاصرين.

فماذا حصل؟

أولا: إن الضمير الذى كان ميزان الأفعال، من حيث كيفياتها وتقييمها، أضحى هو نفسه يقاس بموازين المصالح (أو بإرادة ما يفرضه الأقوياء، أصحاب المصالح)، فانتصر تقديس الكم والدخل، تحت لواء جنون النفعية المحض.

ثانيًا: تحت تأثيرات مجموع المواقف والاتجاهات المذكورة تصارعت المجتمعات (بما فيهامن أقوياء وضعفاء، ومن أثرياء ومعدمين)، بحثًا عن أنواع التسلى علها تنسى، ولو للحظات، الشعور بالتفاهة والضياع. بيد أنه، لا الكحول والمخدرات، ولا القمار وألعاب العنف ولا «حرية الجنس» الفوضوية العابثة أكسب الحياة طعمًا جديدًا.

إن هجومات الهموم والسأم والضجر تزحف، بلا منطق، وعلى أوسع نطاق، وليست الانحرافات إلا مظهرًا من مظاهر عديدة للأزمة الروحية الحالية، إنها مجرد تفجير لطاقات جسدية ونفسانية، طمعًا فى تخفيف الأزمات المعنوية والمجتمعية، إلا أن النتائج جاءت عكسية تعمق الفجوات. إنه تفجير فجور البعض على حساب كرامة وإنسانية آخرين شيئتهم أوضاع جائرة، فانحل المجتمع البشرى بانحلال القيم، وسقط ضحية للحقد والبغضاء.

العالم مشقوق من الداخل والخارج، والإنسانية بكل طبقاتها تجرى وتلهث، تلهث وتجرى وراء المجهول. لقد فقد عالم المعاصرة نقطة ارتكازه.

أين المخرج؟
من المنقذ؟

* * *

باسم التقدم..

تبيح المعاصرة ما يخالف العرف والعادة، وما يتعارض والقيم الإنسانية وتبرر أعمالا تتبرأ منها الأخلاق، وتضطرب لها النفوس، قرفًا واشمئزازًا.. وكلما صاح مصلحون، أجيبوا بأن ذلك يخدم «التقدم» و«التحرر». ومن المسلمات أن «التقدم» و«التحرر» مقدسان لا يجادل فيهما إلا «الرجعيون» و«المتخلفون» و...

وحتى لا نوصف بالرجعية والتخلف سنقبل جدلا ما يقال عن التقدم، ونضيف: إن التقدم، بطبيعته تطور غائى، نعنى أنه يرمى إلى تحقيق مخططات ورغبات، بواسطة العمل البشرى. والعمل،

بدوره، مضطر لأن يُحسِن وسائله باستمرار، وأن يعي مراميه بوضوح. فلابد من معارف متطورة، ومن مناهج لتطورها وتتطور معها، ترويضًا للطبيعة وبحثًا عن الانسجام العام. بيد أن العمل المتطور/التقدم الغائى، لا يصبح فى صالح الإنسان إلا بعد أن يخضع لضوابط معنوية، أو يتقيد بقيم مشتركة.

* * *

النمط الأمثل للتقدم، أو على الأصح النمط الأقل ضررًا، هو ما يتوازى فيه النمو المادى مع التقدم المعنوى.

فأين نحن اليوم من هذا؟

لا مراء فى وجود تقدم تكنولوجى بيد أنه لا مراء، كذلك، فى أن الثمن باهظ: شعور بالفزع، نظرة متشائمة عن الحياة، المتاجرة بالشهادة وبالكرامة، أزمات يغذى بعضها بعضًا، فيحصل شعور جماعى بالهوان. إنه تخلف وجودى يصاحب تقدمًا ماديًا على حساب أعز ما للإنسان: الصميمية والكرامة.

عندما يحاول الإنسان مصارعة أزمة، يجد نفسه فى مجابهة غول تتستر وراءه أغوال، فيستحيل عليه أن يصنف تلك الأغوال تصنيفًا تصاعديًا، إنها كوارث تتزاحم ولا تعرف عطلة آخر الأسبوع أو أعيادًا موسمية يستغلها الباحث للترتيب والإحصاء. كانت طرق الأنسنة مستقيمة، صاعدة، فباتت ملتوية، بين هبوط وصعود حتى انمحت آثار نقطة الإنطلاق. وإلى ما بين الحربين العالميتين، لم يكن قد انمحى الأمل فى إيجاد بديل، وفجأة، انطفأ الأمل، حيث ظهر أن غول الأغوال هو نفسه يزرع ألف بديل جميعها مخيف.

فلا خروج من الدولاب المسنّن، مادامت مشاريع التصحيح والإصلاح تنطلق من نفس المسلمات والمصادرات التى تقوم عليها مجتمعات اليوم، فى العمل والمعاملات. فلا مفكر حقًا، ولا سياسى واعيًا لمسئوليته يجرؤ فيدعى أن العالم يسير طبيعيًا، وأن كل شيء فيه على ما يرام. بل، إن الجميع، شرقًا وغربًا، يجهر، كل من زاويته، أن مسار الإنسانية ومستقبلها، فى اتجاه يعاكس طبيعة البشر، وجدانيًا ونفسانيًا وأخلاقيًا. فعلى الإنسانية جمعاء (حاكمين ومحكومين، منظرين ومطبقين)، أن تبحث عن بديهيات وفروض جديدة لتأسيس مجتمع جديد. فالعالم قد تكسَّر من تناطح أجهزته. أيمكن تجبير أجهزة أبدعت متناطحة؟ خصوصًا وأن العلاج موكل لصانعيها الذين يعترفون أنها انفلتت من قبضتهم، وباتوا هم فى قبضتها.

يا للمفارقة!..

فهل من رجاء من أجيال الغد؟

* * *

التعليم هو كذلك، صورة طبق الأصل لمجتمع التصنيع والاستهلاك والتبذير. «تصنع» المدرسة والجامعة الرجل التقنى وأطر الإنتاج، فى غفلة عن تكوين الإنسان. لقد سحقت المردودية مبادئ الكرامة والاخوة، وابتلعت غزارة الحاجات اليومية جلَّ الجهود الشخصية، فساد الاستلاب فى كل الآفاق، وانفلتت من البيدغوجيا حاسة الاتجاه. فعوضًا من الاهتمام بتكوين الشخص ورصد إمكانات التعاون العلمى والتآخى، أصبحت المدرسة تفضل أن تربى فى الأطفال قابلية على المنعكسات المشروطة، لتفرخ أجيالا لا يتخطى الإدراك لديها مستوى الإشارة الأول(٥).

تلك هى الأوضاع. فمتى سيلتحم، من جديد، الواقع بما يجب أن يكون، فى مشروع إنسانى، وشمولى حقا؟

***

إشكالية المعاصرة هى: كيف نواجه، بلا مفارقة، جدلية الأزمات فى تلاحقها؟

جدلية الأزمات تجرفنا بسرعة. وبغتة تتركنا فى مفترق طرق، ثم، بنفس السرعة والمفاجأة، تقذفنا فى مفترق آخر.

كيف الظفر باطمئنان الذات والسلام فى المجتمع؟

تضاعفت الأعباء حتى لم يعد للاقتصاديين والسياسيين والمخططين،... قبَل بها، لقد عمَّ التدهور فأصيبت البشرية بالدوران. ولا تخطيط يُعيد الأمل فى حياة أفضل.

---

(٥) إشارة إلى تجارب السيكولوجى الروسى (إيفان بافلوف) الذى أظهر وجود علاقة بين منبه ما (مادى) ومنعكس سيكولوجى – فيزلوجى. وها ملخص التجربة التى أجراها بافلوف.

وضع فى فم كلب قطعة لحم، فشرعت غدد الحيوان تفرز لعابًا. (هذا منعكس بسيط) ثم عود الباحث كلبه على سماع جرس كلما مكنه من قطعة لحم. ومن كثرة ما تكرر ذلك، صارت رنات الجرس تفرز لعابًا فى فم الكلب، برغم غياب اللحم. الإفراز، فى هذا الحال الأخيرة، هو ما يسمى بالمنعكس المشروط.

الفصل الثالث

تجارب جفّ معينها
(الليبرالية والاشتراكية)

لا نظام من الأنظمة السياسية والاقتصادية استطاع، إلى الآن، أن يعطى حلا ناجحًا. كما لم تستطع أية فلسفة ولا أية فكرلوجيا أن تدل على منهج يوقف جدلية توالد الأزمات، وتكاثفها، أو على الأقل، يخفف من وطأتها الجهنمية. والأدْهى أن لتلك الجدلية حتمية تتناقض مع حتمية المنطق وحتمية العلم، مما يعمق حيرة الإنسان المعاصر وهو يهيم فى التقنيات، ضائعًا فى أنانيته، إنها حيرة دوران فى عالم أبكم وأصم يُرغِم البشر على أن يعوا عبث الأوضاع ومحدودية قدراتهم. وبما أنهم منغمسون فى محايثة متطرفة تسد عليهم كل منفذ نحو التعالى، يحتد شعورهم بالعزلة أمام حتميات ميكانيكية غاشمة بلا أمل ولا متنفس للرحمة والإيثار.

الخوف عارم، والعزلة تجرف داخل الضوضاء، والفوضى تضل.. ضاعت الوسائل الروحية للتصعيد وغدت الأفعال البشرية تقاس بمردودها الكمى المادى، ولا مقاييس سواه. ترتفع، من حين لآخر، صيحات منذرة، إلا أن صداها يحاصر داخل وجدان السامعين، ولا مراجع روحية تدفع بالضمائر إلى الثورة.

* * *

وما يحاصر الضمائر؟

تلاشت القيم الروحية التى كانت تنسق علاقة الضعفاء بالأقوياء، وتربى فى الجميع وازعًا يدفع إلى الحق والعدل والمعروف، وينفر من الباطل والمنكر والبهتان، فتقوّى الحصار على الضمائر، بضغوط عصبيات وعصابات تدافع عن مصالح خاصة، وتُسكت الأصوات البريئة. النتيجة تشرّدت محاولات الإصلاح فى سديم الغوغاء.

فى الخمسينات، عقد البعض على استنتاجات المستقبلية أملا فى الإنقاذ، ثم نما الأمل مع ظهور علم الإعلاميات، وبلغ الذروة عندما فتحت الإعلاميات الطريق للتيلمتيكا.

لكن الأمل ما زال معلقًا كاحتمال، من احتمالات كثيرة.

فأنى لحضارة انتحرت فيها كرامة الإنسان وانمحت القيم والآمال، أن تعالج الأوضاع، بنفسها ومن داخلها؟

فلابد من إصلاح بنيات المجتمعات الحالية ومعاييرها ومعالمها. والعلاج النواسى لا يشفى: «وداونى بالتى كانت هى الداء!»

الداء عضال، ومتعدد الأوجه، ويباغت بقدرة تعجز العقل، وتهدد باستمرار العلم والتكنولوجيا بـ «مات الشاه!»، وكأننا فى لعبة شطرنج مستمرة أبدًا.. لقد حكم العماء الأخلاقى على الخيبة بأن تستمر فى عناق الحيرة، إلى أن تتحول الفعاليات البشرية، كيفًا ويصبح الكيف قيمًا، وتخول القيم الفاعل القدرة على أن يتجاوز ذاته والماديات المحض. ولا سبيل لمقاومة الأزمات المزمنة إلا بالكيفيات، وإن تقييم الكيف يحيل على قيم شمولية. فبنيات المجتمعات البشرية فى حاجة إلى مراجعة وفحص وتمحيص، انطلاقًا من معايير أخلاقية: إن تلك البنيات ليست بنيات صراع الطبقات، وعلاقات الإنتاج بالاستهلاك والتوزيع فحسب، وليست الموازين التجارية والمالية والمبادلات، بل إن البنيات، كذلك وأكثر من ذلك، شبكة الدلالات التى يعطيها كل فرد لنفسه ولمجتمعه، وللقيم التى تربط الأفراد والمجتمعات بإنسانيتهم وبالإمكانات على التشخص.

صارع الناس فى الماضى، على جبهة و احدة، خصمًا واحدًا، وكان الخصم متسترًا أبدًا، وعنيفًا أبدًا. ضرباته مباغتة، وصدماته عِبر. إنه الأجل المحتوم اللامُحدَّد. استحوذ الموت على مجموع اهتمامات الإنسان، موجهًا كل أفعاله، إنه المفارقة العظمى والقصوى فى الحياة. حضوره دائم وقار، وكل أدواره مأساوية، ومتسترة، وساخرة. وأمام الموت، تسلَّح الإنسان بقيم روحية، فعانى أوضاعه، باطمئنان، برغم الموت.

أما اليوم، فإن الموت – المصير قد تحالف مع مصير آخر، هو كذلك مدهش، ومقلق، وقهار، ويستبد بكل اهتماماتنا. حضوره يحاصر الحياة اليومية، بلا شفقة، ولا رحمة، إنه أجل جديد محتوم ولا محدَّد، إنه منبع حيرة أخرى أكثر ضراوة من حيرة الموت. رُعْب مقنّع ومتعدد الأوجه: «جدلية الأزمات المعاصرة» حضوره حتمى، وحتميته مجهولة، كما هى حتمية مجهولة مخططات المستقبل. فلا متنفس ولا أمل، مادامت الأوضاع ناعورة تدور على نفسها، كل جزء منها يحيل على جميع الأجزاء، دون تحديد.

إذن، الإنسان المعاصر محاصر بحدّين مصيريين: الموت والأزمات. فعليه أن يخوض الصراع عساه يفهم أسرارهما. وفى غيبة عن المعايير والمعالم، يزداد يومًا بعد يوم اقتناعه بالعجز الكامل. وهذا الوضع، هو نفسه، فاجعة وأزمة معنوية، إنه مصير ثالث.

* * *

تلك هى الحضارة الإنسانية فى مرحلتها الحالية: سلسلات متواصلة تتخاصب فيها أزمات وصدمات. فلو استطعنا أن نتلمّس كل سلسلة على حدة، لتحسّنا اصطدامًا نفسانيًا مضاعفا غالبًا ما يفكّك وحدة الإرادة، ويعطّل القدرات. إنه شلل يدخل كعنصر قاعدى فى الأزمات، ويجعلها،

بدورها، قاعدة وشرطًا للتعصير. ولذلك، فإن كل سلسلة هى، فى نفس الآن، وباستمرار، نتيجة وسبب لسلسلات أخرى.

توتر لا منقطع يؤزّم المعاصرين ويحيرهم، بمغناطيس الرعب والعجز. ولكى يجدوا نظامًا ناجحًا لمواجهة المأساة، يتوجهون إلى الليبرالية، فإذا هى هابطة التوتر، راكدة الدم (برغم ما يلطخ يدها من دماء الاستعمار والحروب العالمية). طبعًا، ما أعطته الليبرالية للإنسانية هام وكثير. لقد أعطت تقدمًا علميًا، وتقنيات وفلسفات، إلا أنها، فى نفس الوقت أنجبت أمثولات فريدة: إمبريالية، واستعمار، وعنصرية، فانغمرت فى الاستبداد والبطش والطغيان.

***

يئست الشعوب من الليبرالية. فبعد أن نمّت هذه وعى الأفراد بالذات وبالكرامة، وبلورت حقوقهم، أمست تسلخهم عن إنسانيتهم، زارعة الشوفينية والفردانية والحسد والحقد. فانطلق البحث عن البديل، فإذا بالاشتراكية تحمل مشعل التجديد وأمل الغد الزاهر، فى المجتمع العادل المتفتح والمؤنسن. فتفاءل المصلحون، حتى الليبراليين منهم. استبشر الجميع خيرًا بالأنسقة الإصلاحية الجديدة، وعندما شرع لينين يطبق النظرية الماركسية، صفقوا لتباشير الإنقاذ العام وللثورة العالمية. لكن، سرعان ماعض المصفقون الأيدى التى صفقت.. لقد أفرغ ستالين الثورة الاشتراكية من روحها الإنسانى. أُفرغ الهيكل النظرى من محتواه، علميًا، فتقمص ألوانًا لها رجات تاريخية مؤلمة: بياض ثلوج سيبريا القارسة، وسعير (الغولاغ) مدرَّجا بالبراءة المشنوقة والأخوة المزورة. إذ ذاك نزفت إمكانات البديل الاشتراكى وأصيبت التنظيرات برخو، باتت العضلات من جرائه هشة، تستجيب حركاتها لمتطلبات «قومية» وكأن قطيعة فصلت الأفعال عن مقتضيات المبادئ. فلا غرابة أن يعانى الاشتراكيون شعورًا تعسًا، يضيف إلى الأزمات المختلفة والعديدة أزمة معنوية أخرى. فبعد أن حملت الاشتراكية ألوان القيم العالمية (الإصلاح والعدل والتعاون والسلام)، انحرفت بانحراف بعض زعمائها، وبما اعتراها من خلل التطبيق وتعقيدات البيروقراطية.

عندما ورث القرن العشرون عن التاسع عشر النَّزعات الاشتراكية كان لتياراتها «وجه إنسانى» جذاب. وبقيت كذلك إلى أن قامت معارك بين اشتراكيين تقليديين وماركسيين، وانقسم هؤلاء إلى أصليين ومنحرفين. فكانت معارك داخلية متنوعة عرفت العنف وتفرقة الصفوف، مما سهل هجومات الخصوم. وبالإضافة إلى الواجهتين الداخلية والخارجية اضطرت الماركسية (وما تزال) إلى شن معارك فكرلوجية قوية ضد هوس الستالينية وحماتها الذين ما زالوا يكابرون برغم كل المعطيات التاريخية وهلعها، فكأن الآية القرآنية تعنيهم:

﴿إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ (قرآن: ٢٢، ٤٦).

يقاوم الماركسيون بقايا انهيار الستالينية، بقايا كابوس نهاره كليله، كابوس، هدم حلم الحرية. وقتها، غدت الروحانيات «أفيونًا»، وظهرت طقوس لـ «عبادة الشخصية». فتوقف تشخصن

أجيال وأجيال، وتفرقع الأمل الكبير. فالدين «أفيون»، و«أفيون» كل ما ليس مباشرة من «البنية التحتانية». وتأبى الظروف إلا أن تظهر تفاوتاً بين التنظير والتجهيزات الكفيلة بتطبيق الاقتصاد الاشتراكى. إذ ذاك تجلى، فى جل البلدان الاشتراكية، أن التصميمات، والمشاريع الاقتصادية لم تنجح كما كان مأمولا. تروى آخر الأخبار أن بلونيا الشيوعية تطلب، باستعجال، إعانات غذائية من دول رأسمالية..

* * *

تنسب لبرنارد شو هذه المقولة:

«إن من لم يكن شيوعيًّا فى سنِ العشرين ليس له قلب، ومن يبقى شيوعيًّا بعد الأربعين ليس له رأس».

فالقضية الأولى اليوم هى البحث عن نسق للحياة يوفق بين القلب والرأس. وقبل أن يتحقق هذا النسق – الأمل، كم من دماء ستسيل، ومن طاقات ستهدر، ومن شعوب ستندثر، باسم «أمن الدولة»، و«الدفاع عنِ الوطن المقدس»، و«حماية شرف الراية الوطنية» وغير ذلك من القيم المصطنعة. فالشرطة تجند لحماية الصناديق المصرفية (وهو عمل ضرورى)، والشرطة تحمى الفكر من الاتجاه النقدى وتعرية الزور. إن الحقيقة محاصرة، وأهل «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» بلا لسان، لأنهم تآمروا على الضمير.

أما قادة الدول، فالسياسة قد أفقدتهم القلب والرأس لأن المحيط العام يزرع الذعر. فهذه ألمانيا الفيدرالية تخشى من كساد اقتصادى عالمى أكثر مما تخشى حربًا نووية، كما صرحت به، على لسان مسئولها الأول، المستشار هيلموت شميت.

وبالفعل، إن الأنظمة الرأسمالية تُعَرَّض إلى زلزال إذا ما حصل كساد عالمى. وبما أن الرأسمالية أضحت الهدف والشروط والمرجع ومنبع القيم، فهزاتها تلقى لامحالة بجموع الكيان فى الفراغ. فلا قناعة ولابديل ولاقدرة على التسامى.

إن كفاح الليبراليين من أجل الرأسمالية ككفاح الماركسيين من أجل تصميماتهم وأنظمتهم، شبيه من بعض الوجوه، بتعلق المؤمنين بالتعالى: التزام بشىء فوق الواقع. فجميعهم يعطون معنى يتجاوزون به ذواتهم ويغامرون بحماسة كأن كل فعل تدعمه فكرلوجياتهم يطهر النفوس. فهم يسهمون فى بناء صرح ضخم، فى تأسيس تجمع معشرى بلا حدود تجمع أعضاءه آراء وآمال مشتركة. فالرأسمالية أضحت كزاوية عالمية ذات الاهتمامات المماثلة، كذلك الماركسية، إنها زاوية عالمية، وإن اختلفت القبلة هنا وهناك، بل كثرت عواصم التسيير والزعامة عند هؤلاء وأولئك. وكل ذلك لا يقضى على التناقضات الداخلية، عندما تتعارض المصالح. فالمزاحمات أكبر مظهر لذلك فى الرأسمالية والانقسامات بين «التيتية» و«الماوية» و... فى الماركسية. تتعارض المصالح لأن الأنانية

والشوفينية لا تزيدها الأيام إلا حدّة. فالطابوات (Tabou) الفكرلوجية، لا تستطيع حجب هذه الأوضاع.

وفى نفس الوقت، تروى نفس الأخبار الكثير عن تناقضات وأزمات البطالة والعملة والطاقة، وعن تفاحش الجرائم، فى أغلبية البلدان.

* * *

إلى أين اللجوء؟
أين المفر؟

إن الأزمات المعاصرة لا تعفى يمينًا ولا يسارًا، كل الحلول التى قدمها مختلف الأطراف تصطدم بواقع يناهض، ويفاجئ ويهاجم.

وربما كان فى هذا تفسير للظاهرة العالمية الجديدة، عند الشعوب الليبرالية، وحتى عند الاشتراكية: ميل ملح، لدى مختلف الطبقات وبحنين وصدق، إلى إحياء القيم الروحية، اعتقادًا أن الإنسان المعاصر سيجد فى الإيمان والتدين سكينة وغذاءً معنويًا، فى الوقت الذى يتآكل الناس السأمُ والفراغ تآكلا، والمصير أنحس مصائر تهرول فى العماء المطلق.

* * *

إلى متى سيطول التردد بين ليبرالية غير مكترثة بآلام أغلبية البشر وبؤسهم واشتراكية حائرة تريد إسعاد الناس بعد أن وئدت حرية الاعتقاد، وسلخت الشخصية عن البُعدَيْن، الفكرى والروحى؟

«الإنسان يحيا بالخبز» لكن لا للخبز وحده، بالإنتاج، لكن لا للإنتاج والاستهلاك فحسب. إن المجتمعات التى دخلت عصر التبذير، متجاوزة عصر الاستهلاك، تنتج كثيرًا وتستهلك كثيرًا، ومع ذلك لا تنتج ولا تستهلك السكينة. إنها تجهل المحبة الحق والتواصل.. أزماتها تتشابك، بلا حلول، وبلا مناهج، وبلا قيم يركن إليها البال والذهن فتتفتح الشخصية وينتشر الأمل.

إن المناهج والقيم كالأنظمة، جميعها فى أزمة. لقد اتسع الفراغ المعنوى وتعمَّق، فسوَّى بين الأغنياء والفقراء. الجميع (الليبراليون والاشتراكيون) يتساءل، الجميع يهدر طاقات ذهنية غزيرة بحثا عن حلول للأوضاع، ولكن بلا جدوى بل، على العكس، يزداد وعى الجميع بالقصور عن مجاراة جدلية الأزمات وعن فهم سيرورتها. الجميع يجثو أمام جدار العجز التام، أمام مبكى القرن العشرين، المبكى المشترك بين كل الأنظمة المعاصرة، أمامه تتكسَّر قدرات الشعوب وقدرات قادتها. إن شيئا ما يضغط على سلوك الناس ويكيف محيطهم، وهو لا يخضع لضوابط قارة معقولة، ولا ينبع عن إرادة، ولا عن عواطف نبيلة. فراغ معنوى مفزع. فحتى الثقافة تغلب عليها الشكليات والحرص على الجانب الترفيهى، إذ لا تخدم التواصل الوجدانى والاستعداد للترقية من داخل الذات، لصالح مجموع الذوات.

* * *

عصرنا عصر تحديات فاصلة: قدرات على التدمير تتواجد مع عجز مخجل عن الإصلاح. توقفت الحتميات العلمية، فدخلنا متاهات اللا - متوقَّع، ومخاطرات يترتب عنها مجهول هائل. نعم، عرفت الإنسانية فى الماضى كوارث فواجهتها بأنواع من العلاج. أما اليوم، فلوائح الكوارث تكبر وتتكدس، فى حين تتقلص القدرة، على تشخيصها، وبالأحرى على علاجها. إذن، لابد من إعادة النظر فى كنه الوجود، وماهية الحياة، وفى معانى الكآبة والضياع والقلق، ولابد، كذلك، من تقييم جديد لمفاهيم اطمئنان ومحبة وأخوة وسعادة..

* * *

سكتت الطبيعة عن حوار العلماء والتكنولوجيين حول كل ما يسعد الإنسان. فلم لا يفتح هؤلاء حوارًا مع ما وراء الطبيعة؟

يفترض الحوار محاورين واعين للأوضاع، قادرين على تفهم المصير والتكيف معه. لكن الظاهر أن إنسان اليوم قد جن من تكاثر الكوارث والآلام، جنونًا أنساه بُعدَيْن من أبعاد الذات، الجوانى والروحى، فقنع بإنسانية معطوبة، وبهوس المصائر، فكأن الحياة انقلبت إلى قفص، ومن طول الغربة وراء القضبان، ساد عدم الاكتراث بالغد، وبالغير، وبالخير والجمال والعدل، لا تحتفظ من قيم الماضى إلا بذكريات غامضة، تضع، من حين لآخر، الملح على الجرح، فتشتعل الأشواق إلى تلك القيم، وإلى ما كانت تؤطره من فضائل وما تجذبه من اطمئنان للنفوس.

* * *

حقًّا، إن قيمًا من القيم الشمولية قد بليت، لأن الحياة المعاصرة أدخلتها فى دوَّامة التزوير، فأمست بلا محتوى، وانشغل القادة بأخلاقية شكلية نفعيّة محض. فنصف علماء العالم يستغلون فى مخابر البحوث العسكرية من أجل ازدهار شئون الحرب والتدمير. وفى الوقت ذاته، تؤكد الهيآت الدولية للتغذية والزراعة، أن الإنتاج الزراعى بأفريقيا قد انخفض بين ١٩٦٠ - ١٩٧٠، من ٢,٥٪ إلى ١,٣٪، حسب إحصائيات ماقبل الجفاف المهول الذى عرفته دول الساحل. وفى مقابل انخفاض الإنتاج الغذائى تنمو النسبة السكنية. إنه وضع مأساوىّ.

فأين هى حلول الليبراليين وحلول الاشتراكيين؟

إن الانتظار اليائس هو أيضًا أزمة ومصير.

* * *

إن الماركسية لكثرة ما ألحت على أن تجعل أسسها «مادية علمية» حجَّرت تيار التطور فى التنظير، فباتت التأويلات الماركسية تأويلات شبه إرهابية وسلطوية، كما هى حال، مثلا، تأويلات التحليل النفسانى.

تقود المطلقية إلى الوثوقية، وهذه تغلق المنافذ أمام التسامح والتعاون، وبالتالى تحاصر التطوّر، مما يعاكس التقدم، و «التقدمية» ويفرغ القيم من مضامينها.

مهما كثرت التعاريف التى حاولت تحديد الحياة لم تتوفق فى بلورة المفهوم. لكن الشىء الذى استقر برغم اختلاف التعاريف، هو أن الحياة مجموع ظاهرات خاصة بأجهزة طبيعية فى الكائنات، يمتاز كل جهاز منها عن المادة بعفويته، أو بما سماه برغسون بـ «التيار الحيوى».

فهناك شىء أساسى، تقوم عليه الحياة، ليس هو العقل، ولا المادة، بل «فكرة توجيهية» هى قاعدة نمو الأحياء واستمراريتهم(١). وتلك الفكرة هى التى تمانع فى إرجاع الحياة إلى أصل مادى محض. فمحاولات البيلوجى الماركسى (ميتشورين Mitchourine) لخلق الحياة من معطيات مادية لم تصل إلى نتيجة. كان غرض (ميتشورين) أن يبرهن، بالتجربة المخبرية، على صحة «المادية الجدلية» ليعطى للماركسية أسسًا علمية وعقلانية. لكن بقى لغز الحياة «حيا» ومعجزًا للعقلانية.

إن الكائن البشرى يشعر أنه يحيا عندما يمارس عملا فيحس بمعاناة جهود، ويعى ذاته وحركاته أى وجوده، ويعى أنه هو مبدأ وغاية ذلك الوجود. إنه بنيات متحركة.

* * *

هناك افتراضات عن بداية الحياة، أهمها اثنان:

الافتراض الأول ميكانيكى: وهو ما يدافع عنه الماركسيون إذ يرون أن المعقولية التى تُسيّر الحياة هى معقولية المادة نفسها. وقد حرض هذا المنطق بعض الماركسيين على القول بأن «الحياة لا توجد»(٢).

الافتراض الآخر مثالى/روحانى: يجعل من الفكر شيئًا لا يخضع إلى المادة، إنه داخل المادة لا تابع لها.

فكلا الافتراضين لا يشفى غليل الباحثين عن تعريف الحياة، وتبقى اللا- عقلانية تتواجد مع العقلانية.

ومن جهة أخرى، عندما يركز الماركسيون على أن الرأسمالية تخلق البرولتاريا، يجزئون الواقع (علميًا وعمليًا) لأن الثورات المعادية للرأسماليةٍ لم تقض على وجود البرولتاريا، ولم تحررها، كما كان متوقعًا كجماهير منهوكة ومرهقة ومحرومة. حقًا، قد تحسنت أوضاع العمال فى بعض القطاعات عند بعض الدول، لكن، على العموم إن البرولتاريا، على العكس، فى تكاثر مسترسل فى العالم أجمع.

---

(١) هذا ما وصل إليه (كلودبيرنار) فى أبحاثه الكيماوية الفيزيائية لوظائف الأجهزة.

(٢) Kahane, **La vie n'existe pas**; Paris, Ed. Rationnalistes, 1962.

انظر كذلك:

- Brizay (B.) **Le patronat américain ou la mort du capitalisme.** Paris, PUF. 1979.
- Oparin, **L'origine de l'évolution de la vie.** Ed. de Moscou 1949.
- Prenant (H.) **Biologie et marxisme.** Paris, Ed. sociales, 1950.

ومن الملاحظات المؤلمة أن البرولتير المنتسب إلى الأنظمة الليبرالية أو إلى الأنظمة الاشتراكية، لا تزيده الأيام إلا استلابًا، واستغلالاً، وضجرًا وبؤسًا.

إن التصنيع هو الذى ينتج البرولتاريين كظاهرة مجتمعية، كما ينتج الآلات والمدمرات والقنابل. فللصين برولتاريوها (وإن أطلقت عليهم أسماء أخرى)، وكذلك الاتحاد السوفيتى، وإن (سماهم بـ «الرفاق الشغالين»...).

فكما يؤكده ج فوركاد:

«إن الغرب يعى الخطر المعنوى الذى يهدده. فتقدم المعارف العملية وازدهار التكنولوجيا قد صاحبها تضعضع القيم الأخلاقية وتهافتها».

إن القيم وحدها تعين على تجاوز «التفاهة» و«التضعضع».

وبالفعل، لقد أعطت القيم مناعة للمجتمعات عندما كانت متجذرة فى إنية الفرد، وكأنها أنماط سلوكية تلقائية، عُمدتها إيمان نظيف. والإيمان النظيف سند الفضائل. وكلما حصل أى انحراف أخلاقى أو دينى، تردد صداه فى الأعماق، وتفجر شعور بالحسرة والندم، وإن الندم الصادق مدعاة للتوبة، وكل توبة هى، فى واقعها، عملية تطهير للضمير، وخطوة على دروب الخير والتآخى. وذاك جانب عملى بناء لرقى المجتمعات الإنسانية.

فلا العلم، ولا التكنولوجيا، ولا الفكرلوجيات استطاعت تجذير القيم فى الأعماق. إن الإيمان الصادق هو الذى يستطيع تذويت القيم والفضائل، فتضحى سليقة فى المؤمنين، كما تجعل الطبيعة اللغة سليقة فى الكائن البشرى.

أنسنة العالم، أو الطوفان

حاولت الصفحات السابقة مسح حقوق قليلة من مزارع الأزمات اللا متناهية، وكان مسحًا تلميحيًا أكثر منه وقفات توضيحية طويلة. لكن الحصيلة تكفى لمن يريد أن يطل على عالم اليوم من منظار متنقل، وبالطبع ضيق. فالناس اليوم غير مستعدين لسياحة أطول وأدق، فى معاصرة تنسلخ، تدريجيًا وبلا انقطاع، عما يؤنسن العالم. لقد أصيب البشر بدهشة وانبهار أمام ما يحل به ومن حوله، وفشل عن الحركة العامة. لقد أصبح العالم صريع السرعة، وظلوا هم يسيرون بإيقاع لا يعاصر، إنسانيًا، إيقاع التعصير التقنى. إنها فجوة تهدم كل قياس وكل مقياس، إذ لم يعد لأية «موضة» من الوقت ما كان لـ «موضات» ما بين الحربين العالميتين. قيم اليوم كثيرة الشَّبه بالموضات، فهى كذلك عابرة، لأنها لم تعد تتجذر فى أعماق الإنسان، ولم يبق لها سند متعال.

السرعة لا تعترى الموضات والقيم العابرة فحسب، بل تتسلط على كل ظاهرة إنسانية فتؤزم الاستدلالات المنطقية، وتوتر العلاقات المجتمعية وتحير قادة الشعوب والدول. مثلا، بلغ عدد العرب، سنة ١٩٥٠ حوالى ٧٥ مليونًا (من الخليج إلى الأطلس)، ولم تمر إلا ثلاثون سنة حتى تضاعف هذا العدد، وسيسترسل هذا الفيضان الديموغرافى ينمو مائة بمائة، كل ٣٠ سنة ومن

المترقب أن يصل إلى ٣٠٠ مليون بعد سنة ٢٠٠٠. إنه فيضان ولا يمكن إيقافه ولا إيقاف عواقبه الطوفانية إلا بأنسنة المجتمع. وجسور أنسنة المجتمع هى القيم الشمولية (روح التعاون والتعاطف، الشعور بمسئولية الجميع عن بؤس وشقاء كل الناس، العدل فى توزيع الإنتاج الغذائى العالمى وكل إنتاج، وضمان الحد الأدنى فى الحياة لكل فرد...). ولا يكفى الاقتناع النظرى بضرورة وجود تلك القيم لتتحقق الأنسنة، عمليًا، بالنسبة لكل فرد ولكل دولة. بل لابد من الحرص على تطبيقها. فإما أنسنة العالم لإنقاذه، وإما الدمار العالمى: إمّية مطلقة، ولا طرف ثالثًا. كذلك لن تتحقق الأنسنة المطلوبة بالأدعية والآمال، بل بالاقتناع، فكريًا ووجدانيًا وروحيًا، لكى يصبح المشروع مصحوبًا بإرادة التنفيذ وبروح التضحيات. وبهذا يلبى الإنسان متطلبات غريزة البقاء، فباحترام هذه الغريزة تحترم القيم الشمولية.

* * *

من الضرورى أن يتوفر كل مجتمع بشرى على منظمين ومنظرين ومشرعين، لهم حظ وافر من العقل والعلم والدراية، لتسيير المجتمعات. بيد أن هذه المجتمعات فى حاجة ماسة أيضًا إلى أرضية روحية. فوجود نماذج حية، من أمثال القديس (فانسان دوبول) وعمر بن عبد العزيز، ضرورة للتحريض على تجاوز الذات والتعلق بالإيثار، وتركيز المعاملات على المحبة والخير.

إن نهضة جديدة تعتمد الإيمان كأحد مقوماتها لكفيلة بأن تصحح الأوضاع وتعيد للإنسانية هويتها الحق.

ومن ارتأى غير ذلك، فليدلنا على جواب للسؤال: كيف يستعيد الإنسان أبعاده المادية، والفكرية، والروحية، فى عالم مؤنسن حقًا بعد العقم النظرى الذى يتخبط فيه؟

سؤال كهذا لا يستسيغه المنظرون المعاصرون. فالسؤال الذى يرضيهم هو:

كيف التغلب على الأزمات الاقتصادية؟

وجوابهم عليه يتركز على الاقتصاد السياسى افتراضًا منهم أنه بحل الأزمة الاقتصادية تحل باقى أزمات الإنسان، بيد أن نظريتهم الاقتصادية ليست واحدة، فوجهة نظر الليبراليين ليست هى وجهة نظر الاشتراكيين. ولم يجد الاتجاهان بعد جناحين لينطلقا إلى مستوى الأزمات. فكأن المقولات التى يفكر بها المنظرون والقادة قد أصيبت بعطب ولم تجد لها فى أسواق الأفكار والنظريات، قطع الغيار.

فهل فات الركب الحلين، الليبرالى والاشتراكى؟

جواب الطرفين: «أبدًا!». والواقع أن الركب يتعثر وينذر بالسقوط، وأن الهاوية عميقة. فنفس التنظيرات الحالية قصير، وبطىء، ودون الأحداث. فهل من سبيل لتكييفه مع الظروف؟

يُلقَى وابل من خطابات تتناقض فلا تزيد الإشكالية إلا تعقيدًا. قطيعة بين الواقع ومحاولات فهمه وتنظيمه والسيطرة عليه. قطيعة بينه وبين التربية التى تلقنها فى المدرسة والجامعة والأسرة.

وأخيرًا، قطيعة تشمل كل مرافق الحياة. ويظل التطور يزرع الكآبة والحَصَر، ويُدخِل الفكر فى خمول، حينًا ويدفعه إلى تمرد ضد المجتمع والقيم والتواجد أحيانًا.

التقدم والمجهول

ظهرت المستقبلية، فرحب الناس بها، ظنًا منهم أنها ستمنحهم القدرة على توقع ما سيكون. لكن بعد أن طال الترقب ظهرت نتائج مخالفة للمترقَّب. وها نحن اليوم نشاهد الأوساط السياسية والمنظرة منبهرة بما تعد به التيلمتيكا. هل ستحقق الآمال فتجبر ما تكسَّر فى العالم؟

إن مستقبل التيلمتيكا واعد: تقنيات إعلامية من عجب العجاب، وتحولات كثيرة، ومع ذلك:

هل ستسهم التيلمتيكا فى إحلال الأمن والاطمئنان، وتعزز القيم، فتقضى على الأنانية والشوفينية والنفاق، ويتعاون الجميع ضد بؤس وشقاء الملايين من الجائعين والمرضى والأميين؟

أم أنها ستنمى، بدورها، القلق وحروب المزاحمات الطاحنة، وحدة الصراعات بين الأفراد والدول؟

سيجيب الراسخون فى العلم: ليس ذلك برنامج التيلمتيكا، فلا حلف ولا معاهدة بينها وبين القيم والأخلاق...، ولكن، بإمكان كل مجتمع أن يستغلها فى استثمار القيم والطاقات الإنسانية أو فى معاداة تلك القيم.

معنى هذا أنه فى الوقت الذى يتحول فيه مصير الإنسانية إلى الفوضى واليأس والأخطار، يقف آخر عِلم صنعه الإنسان موقف حياد من الاختيارات الحاسمة، خصوصاً وقد ادعى القوم أن بالتيلمتيكا ستقفز الإنسانية إلى الأمام وستدخل عصرًا جديدًا.

مرحبًا بالعصر الموعود! فمن سيدخله، هل الإنسانية ككل، أم الإنسانية بالتقسيط والتبعيض؟

الجميع يترقب مجتمع الغد بلا تفاؤل. فالمصلحون أنفسهم مقتنعون بأن مصير أجيال الغد لن يكون أفضل من مصير أجيال اليوم، طالما بقيت الغايات والاتجاهات والوسائل السائدة ترمى إلى تحقيق مشروع أساسى أوحد: التقدم تقنيًا واقتصاديًا.

عندما طلب الرئيس الفرنسى الأسبق، فاليرى جيسكار ديستان من بعض المختصين أن يحرروا له تقريراً عما ستحققه التيلمتيكا من تقدم، وما تنطوى عليه من مفاجآت، لم يعبأ بالأخلاقية والقيم، كأن أسباب مجموع الرجّات والمغامرات العمياء التى تعطل سير الإنسانية نحو الخير والسعادة، كلها علل مادية محض. يقول السيد الرئيس، فى رسالته لمؤلفَىْ التقرير[٣]:

«تنمية تطبيقات الإعلاميات عامل أساسى فى تحويل التنظيم الاقتصادى والمجتمعى [والسياسى] ونمط الحياة».

---

(٣) S Nora/A. Minc, **l'informatisation de la société,** Paris, la Documentation française, 1978.

ويلح الرئيس ديستان على المؤلفين، بأن يستعينا بالمصالح التابعة لوزارة الصناعة ووزارة الاقتصاد والمالية.. فالغاية المتوخاة هى تحريك:

«التأمل فى وسائل إخضاع المجتمع إلى معطيات الإعلاميات» (ص ٣).

هذا يعنى: دراسة تأثير الثورة الإعلامية، والتقنية على التقدم الأخلاقى والنفسانى. وكما يقول محررا التقرير، إن المباحث المقررة دراستها ستكون موجهة حسب غاية محددة: أن تخول المسئولين القدرة على اتخاذ قرارات واختيار وسائل تدخلاتهم (ص ٥).

* * *

أن تطرح التيلمتيكا تساؤلات حول المستقبل فشىء ضرورى ومفيد. أما أن تتغافل عن أن المستقبل هو مستقبل الإنسان، وأن للإنسان أبعاداً وجدانية وفكرية وروحية، فموقف غامض ومحير. إن الإنسان يعيش بالاقتصاد والسياسة، ولا يحيا بهما فحسب (هذه خاصية يتميز بها عن الحيوانات).

تحدث وزير فرنسا فى البحث العلمى والتكنولوجيا عن «العلوم الإنسانية» فأكد أنها ستكون أساس مشاريع وزارته، وأن الغاية المتوخاة من تلك المشاريع هى تحقيق التغير، ولذلك ستوجه الأبحاث نحو توفير مناصب للتشغيل جديدة وتحسين وسائل الشغل فى كل الميادين.

هذا برنامج تقدمى، وفى التقدم لا يُفرق بين فهم الأوضاع وبين العمل على تغييرها، ولهذه الغاية لابد للمسئولين من الاهتمام بالعلوم الإنسانية.

وشرح السيد الوزير التغير المؤمل: بأنه فى الاقتصاد والتعلُّم وتنظيم الشغل... لكن، ولا مرة أشار إلى الأزمات الأخرى التى لا تحمل تأشيرة الاقتصاد والتصنيع، والتنظيم السياسى... أى أن النظرة الإصلاحية التى يرتقى إليها التأمل المعاصر تنحصر فى علاقات إنتاج - استهلاك - شغل... إنها نظرة واقعية إصلاحية إلا أنها بتراء.

* * *

الإنسان حيوان ولكن...

فلابد أن يَذِّكر المصلحون ويُذكِّروا، وأن يكرروا التذكر والتذكير فى كل مناسبة، بأن **الإنسان أشرف الحيوانات.** فهو، وإن كان قريبها الأكثر قرابة (جنساً)، يبقى البعيد عنها الأكثر بعداً، من حيث كيفياته وشعورهُ ووعيه.

وهذا ما ستحلله الصفحات التالية.

* * *

الحيوانات أحدية الأبعاد، ولا تختار الموت عن وعى وبإرادة، من أجل فكرة أو حب أو معتقد أو من أجل قيمة. وليست الحيوانات كائنات تاريخية، كالإنسان. إنها تسهم فى صنع تاريخ، ولا تحاول

أن تعرف تاريخها وتاريخ نوعها، أو تاريخ الأكوان المتواجدة معها، لا يخامرها قط نزوع إلى المستقبل. الحيوان سجين الزمان الحاضر، ولا يشتاق إلى معنويات، ولا يصمم لمشروعات (تجاوز معطيات الحال)، ولا يهتم بصواب أو بخطأ، لأنه لا يختار، إذن لا مسئولية له معنويًا وقانونيًا فيما يفعل، ولا يعتذر ولا يندم عما يرتكبه من هفوات وأضرار، ولا يتوب فيكتسب العبرة من ندمه. لو كانت له قيم، كما للإنسان، لأصيب بالأرق، ولغضب ضميره كلما دُنّست إحدى القيم.

حقًا، للإنسان «حياة نباتية»، كما للحيوانات، وحياة جوانية يختص بها. وكلما رجحت كفة إحدى الحياتين، انحرف عن الاتزان والتكامل وعن الانسجام الطبيعي. لذلك، إن التربية فى المدرسة والبيت والمجتمع، على العموم، مطالبة بأن تعلم الأفراد الحرص على اعتدال الكفتين.

بذلك يمتاز الإنسان عن الحيوان.

لكن، من الملاحظ أن المسئولية الفردية، فى طريق الاضمحلال ومعها حرية الاختيار. كما أن نزوع الذات نحو تجاوز (الأنا) قد خفتت قواه، ورجحت كفة الجانب الحيوانى. هكذا انتشر التيه، أكثر فأكثر، داخل معسكر لا اشتياق فيه للمعنويات، قانونه الأساسى الخنوع إلى المعطيات الحالية، بدافع أنانية تُبعد باستمرار الذات عن الذوات، ولو على حساب تاريخ مجموع ما كان، وتاريخ ما يود المصلحون أن تحققه إنسانية الغد.

أثقلت كفة الحياة النباتية كتفى إنسان اليوم، فتجاهل أفعال الخير للخير، والأفعال المجانية، والأفعال لجمالها، أو لتحقيق رغبة فى الإحسان (ولا إحسان دون حُسن). الإنسان مغامر بالطبع، فى عوالم العجائب يبحث عن الروعة والهيام فيستغل مخيلته ليبدع آفاقاً من العفوية والصفاء تثير التجواب الشعرى والفنى، فيسكن إلى منابع الوجد والوجود.

فاوست - الشؤم، وفوست - الأمل

من ميزات الكائن البشرى السوى، الحرصُ الدؤوب على ألا تضيع هويته الإنسانية. أما الكائن الذى تتساكن فيه قوى متضاربة، ولا يسانده إيمان بالمحبة والقيم يمكنه من الاحتفاظ على اعتدال الكفتين، فمآله مآل (فاوست) عندما باع روحه لـ (ميفيسطوفيليس)، أمير الشياطين(٤). فعوضًا عن أن يبقى رجلا يتمتع، عاديًا، بملذات الحياة، يعشق كالعاشقين، ويكتسب من المعرفة ما تسمح به قدرات الإنسان، ابتغى ما ليس من مستوى النوع البشرى، وتخلى من أجل ذلك عن روحه. فلو حاول إدراك المعرفة والتمتع بالدنيا وتحمل المخاطر التى تقتضيها المغامرة،

(٤) فاوست بطل خرافة جرمانية الأصل، استغلها كتاب كبار عديدون، أشهرهم (مارلوف) البريطانى (١٥٨٨)، ثم دخلت الآداب العالمية، مع جوته الألمانى (١٨٣١).

دون تنازل ورهان، لكان بطلا حقًا. لكنه فضل الخضوع لشروط (ميفيسطوفيليس)، الذى التزم بخدمته طيلة أربع وعشرين سنة، يوفر له ملذات فوق العادة، ويمنحه أقصى ما يمكن من المعرفة.

وما إن تراءى لـ (فاوست) أن المتعاقد معه شرع يوفى بعهوده، حتى انطلق، وهو خلو من الروح، يعمل فى الكون وكأنه حقًا قد أصبح قادرًا على فهم كل شىء، والسيطرة على كل شىء. وسرعان ما أضحى متجبرًا فى العالم.

ولم يمر إلا وقت قصير حتى اضطرب وجدانه، أمام الفراغ والسأم، فجنّد بمجموع قواه للهدم والعنف متخبطًا فى الكون بمرارة، غائبًا عن المحيط الإنسانى وعن الواقع. ثم أخذ يتقتله الحنين إلى هويته الأصيلة، وبدأ ضميره يستيقظ، رويدًا رويدًا. لكن، هيهات أن تنسجم طبيعتان فى شخص واحد: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه﴾[(٥)].

* * *

من طبيعة الإنسان (الإنسان السوى) أن تتساكن فى قلبه النفس التواقة إلى الكمال والخير مع النفس الأمارة بالسوء، فيظل متوتر الضمير، مفتوحًا صدره على تجاوز هذا الصراع الدائم. إنه وضع مرهق يتحمّله الإنسان طيلة حياته. فلو كان له قلب ثان، بصراعات وتناقضات أخرى، لضل السبيل إلى ذاته فى واقعها الإنسانى.

ذاك ما حل بفاوست.

جن فاوست من البحث عن ذاته، وعن قيم يزن بها بنود العقد الذى يربطه بـ «ميفيسطوفيليس»، بعد أن اقتنع بأن الصفقة خاسرة، قسمة ضيزى.

كيف يقيّم ويقوّم الخسارة، وقد استرخص، من قبل، الروح والكرامة؟...

* * *

يلتقى جوته بفاوست، فى القرن التاسع عشر، ويأخذ بيده ليشخصنه، من جديد، ليستعيد فاوست كل أبعاده، ويغدو لا يستوحى سلطة الفكر والمعرفة إلا من إنسانيته. دخل معركة ضد من اغتصب منه الروح فكانت عاقبة (ميفيسطوفيليس) الخسران المبين. أما فاوست - الإنسان فقد حقق ما يرنو إليه من تعال وتوق للعمل. إذ ذاك أصبحت حركاته قصدية فى مغامرات إنسانية، لأنه التزم بتحقيق مُثل عليا، كما أدركها بوجدانه ووعيه وعقله وحدسه، على ضوء قيم شمولية مشتركة.

ميفيسطوفيليسية معاصرة

ظهر بعد جوتيه كثير من أمثال ميفيسطوفيليس، فاغتر بهم العديد من أمثال فاوست الشاب ودخلت أرواح أسواق المزاد العلنى.

لنتمعن قليلا فى ميفيسطوفيليس معاصر، من جيل الربع الأخير من هذا القرن. ها هو: جسم

---

(٥) قرآن كريم.

ذو رءوس متعددة، وأرجل شتى، يحمل فوق كتفيه الغليظتين خزانة كتب كبيرة، وصنادق بها مكرفيلمات وجذاذات وأشرطة. وقف فى مفترق طرق لتتداول رءوسه فيما بينها بضوضاء. وما إن يُصدر رأسٌ أمرًا للأرجل حتى يعقبه أمر مخالف من رأس ثان. تناقضات الرءوس تُسير الهيكل فى مكانه، مجمِدا حركات الطرق.

هكذا، تضخمت معلومات الإنسان المعاصر - (ميفيسطوفيليس) - أواخر القرن الحالى، وتقوت قدراته. لكن، فى نفس الوقت، تضخمت مخاطر الضياع والانتحار اليائس والتدمير الشامل. تنازل عن التعاون والإخاء والإرادة والمسئولية، فصار ألعوبة تحت تصرف قوات تدفعه من الخلف، وأخرى، هى كذلك خفية، ترد الدفعات من الأمام. حركات مرهقة ولا تُحرُّك!

* * *

فمتى سيستعيد فاوست العصرى روحه لينحى عن الطريق كل ميفيسطوفيليس مارد، ويجعل قوتَي الدفع ورد الدفع متكاملتين؟

متى سيستأنف البشر، متعاونين، المسيرة نحو آفاق جديدة تضمن الكرامة للجميع، وتصحح الاتجاهات الاقتصادية والمعنوية معًا؟

إن الشعوب التى تعمل على أن تتجاوز القطيعة المجتمعية والانشقاق الصراعى داخل الإنسان، شعوب تسير فى طريق السعادة الحق. أما السعادة المزيفة، فوليدة الثقافات التى تنتصر للجانب الحيوانى (المغرى) على حساب الجانب المتوثب نحو التجاوز (بعد أن يستعيد جناحيه المقصوفتين).

كيف يمكن إيقاف غزو الحياة النباتية التى تكسر المعنويات وتخدر الوعى بالذات والحدس والشعور والكرامة، وتذيب القدرة على التفانى من أجل معان تقييمية وتقويمية للإنسان والتأنسن والإنسيات؟

خاتمـة

حاولت الصفحات السابقة أن تفحص أنماطا من أزمات العصر وأن تجلى تأثيراتها على الأفراد وعلى المجتمع، وتُجلى تأثرها بهم. وبرغم أن تشخيص الأعراض كان سريعًا وجزئيًا، نظن أنه كاف لأن يجعلنا نتصور إلى أية هاوية ستنقاد الإنسانية إذا استرسلت كفة «الحياة النباتية»[1] ترجح على كفة المعنويات والقيم.

فمن أى منبع يمكن أن يرتوى إنسان اليوم بدينامية الاعتدال المنشود فيتجند للإنقاذ؟

على هذا السؤال، يقترح القسم الثانى بديلا: تجربة الإيمان.

* * *

قبل ذلك، نضيف نقطة عابرة على ما سبق. لعل البعض قد لاحظ أن محور العرض السابق كان هو «العالم المعاصر»، لا «عالمنا المعاصر»، كما فى عنوان الندوة التى نظمتها أكاديمية المملكة المغربية. سبب ذلك هو أن الثالثيين (وكاتب هذه الصفحات منهم) ما زالوا مُهمَّشين خارج المعاصرة. إن العالم المعاصر ليس لهم، وإنما هم فيه وحسب، ينتسبون إليه بانتماء ظرفى.

هذا أيضًا يخلق إشكالية فظيعة تحتاج إلى تحليل وحلول. لكن، ليْس هنا مكان ذلك، وإن كنا نأمل أن يجد الثالثيون فى البديل الذى يقترحه الفصل التالى، حافزًا ديناميًا على الصراع ضد التخلف، بغية الولوج فى معاصرة جديدة، بعد تقييم المعاصرة الحالية لتقويمها، إن كانت ما زالت قابلة لتقويم!

---

(١) الحياة النباتية (la vie végétative) حياة بلا أفق، بلا تعال، ترغم الكائن البشرى على الاهتمام بالعمليات الأولية للحفاظ على الحياة الحيوانية (أكل وشرب ونوم)... دون اهتمام بالقدرات الفكرية وبالوجدان.

القسم الثانى

فى سبيل الإنقاذ

مدخل

طالبت اللجنة المنظمة للندوة بأن «نعالج أسباب الأزمات وآثارها». وهو ما حاوله القسم السابق. وتضيف اللجنة بأن «نستخلص الحلول لبعض مظاهر الأزمات»، وهو ما سيتصدى له القسم الثانى.

تخالف هذه المحاولة بكثير الأولى، لأن العلاج أصعب من المشاهدة والتشخيص والوصف. فكما يقول المثل المغربى «الداء يأتى بالقنطار، أما الدواء فعلى رأس الإبرة».

* * *

ولكى لا يكرر هذا القسم ما جاء فى السابق، نكتفى بخطوط عريضة ومقتضبة عن المجتمع المريض، قبل أن نقدم العلاج المقترح.

– لقد زاغت الغرائز، وشرع الشباب العالمى يستيقظ متوترًا غاضبًا. غضب على مجتمعات يسيطر فيها شره الملذات على العواطف، وتقضى فيها مجاملات النفاق على الصدق فى المودة. هذا المناخ أسخط الفئات الصامتة من الفتيان والفتيات فتمردت، فى حين كان المسئولون عنها غافلين. ثم وقعت صدمة الفجوة ولم تأت اليقظة إلا بعد أن بدأ هدير العاصفة يدوى بسرعة هزت بنيات الأسر ومنظمات التربية.

– انتشرت المخدرات بالجامعات، والمداراس الثانوية، وها هى تتسرب إلى المدارس الابتدائية.

– تلوثت، البيئة، وجدانيًا وجغرافيًا وتاريخيًا ومعنويًا، وحلَّ الحزن والسفه محل الرشد والانطلاق.

بات المؤشر الاقتصادى هو المهم الأول لكل الشعوب وأساس تحركاتها، والأيام تنمى خلل التوازن بين السكان والمواد الطبيعية. مئات الملايين هى الأفواه (فى عصر البذخ والتبذير) التى تنتظر اللقمة قبل الانتصار النهائى للجوع! اللجن الأممية تجتمع لتتحدث فى الموضوع. وتطول الجلسات والمداولات شهورًا... ثم يحدد تاريخ اجتماعات أخرى للمداولات والإنصات إلى تقارير الخبراء والتصويت. وإذا وقع اتفاق ما بين المجتمعين المتداولين المقررين، بدأ دور اجتماعات خبراء للمراجعة، ودور آخرين بعدهم للتنفيذ، كأن الجوع صبور صبر أيوب.

- أصيبت كل المجتمعات «الراقية» بشره الاستهلاك، فى الوقت الذى تطارد فيه عواطفٍ التآسى والتعاطف وصدق المودة. ينسى المبذرون الجائعين، فينسى الأمن وراحة الضمير كلَّ المجتمعات، بمجموع طبقاتها. الكل معذب، المتخلفون فى جحيم الجوع والاستلاب، والآخرون يعذبهم التبذير والمزاحمات والتخمة. شمولية التشكى والضجر والألم. والأنين.

- يساعد الحظ أطفالا فيجدون مقاعد فى المدرسة والجامعة. وبعد سنوات من الجهد والجد، يتوجهون (وبمحفظتهم شهادات جامعية) إلى أسواق العمل، فيقبل البعض (بالحظ والمحسوبية) ويُترك الباقى فى لوائح الانتظار، وكثير منهم تنقل أسماؤهم إلى لوائح اليائسين. من ذلك جيوش الشباب المتمرد على غد ليس لهم استعداد لمقابلته، لأن الشعور بالتهميش جاد، وإمكانات الأمل ضئيلة. فبأى سند يمكن مقابلة مستقبل مجهول، وقد عجز الإنسان عن مسايرة حاضر غامض ومتناقض، ليس فيه ضمانات معنوية (أخلاقية وروحية) يسكُن بها القلب عن اليأس؟

إن المعاصرين منبهرون بنجاحات المخبر وبالتطبيقات التكنولوجية، انبهارًا ينسيهم التجارب الوجودية. فماذا يمنعهم من اعتبار ثنائية التجارب؟

الطبيعة مليئة بثنائيات لا تعارض التعادل والتناسق. لذى نرى أن الرجوع إلى القيم الشمولية، وقد أعيد تذويتها، هو الحل الناجع، وأن الإيمان خير ضمان لتلك القيم. لكن فعاليات الإيمان تصطدم بأفكار مسبقة.

ذلك ما ستقوم الصفحات التالية بعرضه ومناقشته.

الفصل الأول

الإيمان: وسائل وبديل

باسم الواقعية، يرفض البعض القيم والإيمان الذى يساندها. على أن الواقع ليس هو ما يتحقق فى عالم المحسوسات فقط، بل كذلك ما يتحقق فى عالم الوجدان.

والعالمان معًا فى الوجود، والوجوذ عين الواقع. والعدم نفسه لا يكسب واقعيته إلا من علاقته مع الوجود.

نحيى الأزمات، فى واقعينا، الذاتى والمجتمعى، ونحيى عجزنا على مجابهتها، فتحملها قهرًا، لأن المقاومة فوضوية، وبلا طائل.

تلك أيضًا تجارب «واقعية»، كما أن وجود الإيمان وديناميته من الواقع. حقًا، الإيمان هو أيضًا فى أزمة لارتباطه الصميم بالقيم التى تعانى تأزماً. برغم كل شىء، يحافظ على دوره الأصيل: إنه يشهد أن للإنسان إمكانات وقدرة على اتخاذ أسمى المواقف والقيام بأعظم التضحيات من أجل مواقفه. وهذا يعنى أن الإيمان شهادة على ميل الإنسان إلى تجاوز الذات نحو الأحسن من منظار قيم تستحق التقدير والإجلال. ينبئ هذا التعلق بتجاوز الذات، (تحقيقا لقيم عليا وشمولية) عن ميل إلى التعالى. ومن الواقع المشاهد أيضًا أن الإيمان الصادق يعيد للناس الثقة بالنفس، ويعزز التعاون والإخاء، مما يُحول الإمكانات الإنسانية إلى متحققات مجتمعية.

* * *

مَثَل مشاريع المعاصرة المنسلخة عن القيم، كمثل حمامة تعجز عن التحليق برغم الأجنحة، لأنها تختنق بانعدام الهواء فى محيطها. يود بعض المعاصرين لو تأتى للحمامة أن تطير بلا هواء ولا أجنحة... لكن الطبيعة تعارض التحليق فى أجواء لا هواء فيها (إن كانت موجودة تلك الأجواء!).

فمتى سنعي أن التقنيات والتقدم بل والحضارة فى حاجة إلى تهوية نظيفة، إلى اطمئنان أخلاقى ونفسانى كى يبقى فى مسار تصاعدى نحو التشخصن السوى؟

* * *

لم يقلّص الواقع؟

من الأفكار المسبقة التى تدعو لها بعض الفكر لوجيين، أن للعقل قدرة على استيعاب كل الواقع، وأن كل ما هو «واقعى عقلانى»[1]، وأن الكلمة الفصل فى الأحكام عن الواقعية والعقلانية ترجع إلى طرق علوم الطبيعة، وأن صلاحية القيم والأفعال والمعتقدات، لا تقاس إلا بنتائجها المحسوسة.

تبعًا لهذه القبليات، يحكم البعض بأن الإيمان والتعالى وكل ما يتصل بالروحيات والمعنويات مفاهيم مرفوضة لأنها خرافات، لا وجود لها فى الواقع.

من هنا الدعوة إلى تجنيد كل القوى الحية فى محاربة الدين، عوضًا عن تجنيدها ضد التخلف.

ماذا يجيز أن نتقول على الواقعية والعقلانية والموضوعية فندعى أنها تصدر أحكامًا من ذلك القبيل؟

* * *

لن يكون الجواب دفاعًا عن الإيمان، ولن يكون باسم الغيبيات، ولكنه دفاع، باسم الواقعية، عن الواقع باختلاف أوجهه ودرجاته، ارتكازًا على الموضوعية والعقلانية. فنكران الأبعاد العمْقية (عالم الوجدان / الروحيات / المعنويات) تكسير لوحدة الشخص، إفراغ له من كل ما ينقله من الكائن الخام إلى كائن بشرى يتشخصن ويتأنسن طول الحياة، فى ومغ مجتمعات إنسانية.

حقًّا، كثير من الناس «لا يؤمنون»، هذا أيضًا واقع لا سبيل لنكرانه إلا أنه، بدوره، لا ينفى وجود مؤمنين. وبصدد العالم الثالث الذى يهمنا بالدرجة الأولى، يصرح الجغرافى - السوسيولوجى بأن الثالثية تجعل منه حركة دينية، وأن الذين يفكرون فى العالم الثالث لا يأخذون تلك الحقيقة بعين الاعتبار. لذلك، عندما يتحدثون عن العالم الثالث يتحدثون عن شىء يجهلون موقعه على الخريطة..[2].

الواقع المخبرى ليس كل الواقع

يعترف العلماء بأن آفاق العلم محدودة، فكما تطالب الدساتير باسم الديمقراطية، أن يُعترف بحرية الرأى، واحترام الاختلافات الموجودة، علميًّا بين الأفراد والجماعات، كذلك تطالب بأن يعترف للدين بحالته المدنية المشروعة، داخل الواقع ويعترف بالمواطنة للقوات الأخرى التى تحرك الوجدان وتجند القدرات البشرية (الرغبات، الحدس، الميول، والحب..). إن «الدفاع» عن الدين هو عمليًّا مجرد محاولة لإثبات جانب من الواقع الإنسانى. لذلك، لا ينطلق «الدفاع» من أوامر

---

(١) وجه وحيد من أطروحة هيجل المزدوجة.

(٢) Y. Lacoste, Unité et diversité du Tiers Monde, Paris, Ed. F. Maspéro. 1981.

شرعية، وإنما يستند إلى مشروعية وجوده كمؤسسة مجتمعية تعكس تواجد مواطنين متدينين مع مواطنين غير متدينين (وليس فى هذا أى تفضيل).

الوعى لا يقول بأفعال دافعة، مقبولة مجتمعيًا، إذا لم يصاحبه شعور أخلاقى عميق. فالكفاح الوطنى المغاربى[٣] لدى الجماهير والذى أدى إلى الاستقلال، لا يُعزى إلى المطالب العقلانية، كما أنه من الخطأ تفسيره بالمصالح الآنية وحدها. ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار أن الإيمان والأخلاق الدينية لعبا دورًا أساسيًا، أولا فى خلق ذلك الكفاح، وثانيًا فى تغذيته إلى أن أثمرا أكلهما بتجنيد المشاعر وتوجيه الأفعال نحو مطلب التحرير ثم تحقيق الاستقلال.

* * *

هل تجيز العقلانية طمس معالم ذلك الواقع؟

إن العقلانية محدودة، كالعقل نفسه. فمثلا، يقيم (هوبس) عقلانيته على التجريبية والمنطق، فى آن واحد، لأنه يرمى إلى تأسيس تفكير سياسى. لكن التجربة الحسية والمنطق، وإن كانا مع الواقع، لا يمثلان مجموع الواقع حقًا، كل شىء ينطلق من الإحساس ليصل إلى تأليف عقلى، إلا أن الإحساس لا يُعرفنا مباشرة على الأشياء، فالصفات الحسية (مثل الألوان، والأصوات) ليست من خاصيات الأشياء، ولكنها تغيرات تحدث فى ذواتنا، كما تعترى الأشياء، كذلك فى ذواتنا تقع تجربة الإيمان: إنها تجربة وجودية، شهادة يدلى بها من يعانونها فلا يتأتى للفكرلوجيين الموضوعيين أن ينكروا الواقع الدينى، إلاّ أنهم يحاولون تسفيهه باسم العقلانية.

فما يلاحظ على موقفهم هو أن الواقع، فى عمومه، أوسع وأشمل من مجالات العقل والعقلانية. أما الواقع الدينى بصفة خاصة، فأكثر تجذرًا فى كينونة المؤمنين، يوجه سلوكهم ونظريتهم عن الكون والمجتمع، لذلك يجب التذكير بأن ما يحصل فى العيان ليس هو كل ما يمكن/ما كان ممكنا أن يتحقق. ويجب، كذلك أن نؤكد أن الواقع لا ينحصر فيما تسجله الحواس. يقول عثمان أمين عن الجوانى - إن مفهومه أوسع من «مما صدقه[٤]».

فما يسميه هيجل بـ «نظام الإمكانات» بالنسبة إلى الفرد أو إلى الجماعات، أوسع دلالة وأصدق تعبيرًا عن واقعهم من «نظام المتحققات».

فماذا يمنع المصلحين الفكرلوجيين العرب من توظيف الإمكانات الدينية، ولو استراتيجيًا، ضد التخلف؟

تنقص بعضهم حاسة «الواقع» فى نظرته إلى المجتمعات العربية وهذا غير «معقول» من لدن

---

(٣) «مغاربى»: نطلق اللفظة على من ينتسب إلى «مغارب» (شمال أفريقيا) وبفضل هذا الاستعمال، نتجنب الالتباس الذى يسود لفظ مغربى: فهو يطلق أحيانًا على الانتساب إلى المغرب الأقصى (marocain) وأحيانًا على الانتساب إلى «المغرب الكبير/المغرب العربى» (maghrébin).

(٤) الجوانية، دار القلم، القاهرة، ص ٢٢.

باحثين عقلانيين. فهل العقلانية هي التي تدعوهم إلى التنكر للعقل كلما واجهوا المجتمعات العربية في تهميشاتهم عن هذه المجتمعات؟

تلك آية على أن تذرع بعض الباحثين «بالعقلانية» وتعلقهم بأهدابها لا يقينا مئونة تعقب آثار «العقلانية» في ما يقترحونه من حلول وما يفترضونه من تصورات حول العقل ووظائفه النظرية والعملية.

إن العقلانية التي يحتكمون إليها تحتاج هي نفسها إلى مناقشة. فمطلقية العقلانية، كما في نظرياتهم، تعوق العقل عن أن يعرف وظائفه العملية وحدود حقوله. يدرك العقل الواقع تجزئة وتبعيضًا، ولذلك يحس بالحاجة إلى «التعاون» مع الحدس، وقدرات أخرى، ليحصل الإدراك إجمالا إدراك التأليف بعد إدراك التجزيء).

في محاولة الإدراك، يقع بعض مفكري العالم الثالث ضحية للعبة الثنائيات، أو «التناقضات الثنائية»، إن جاز هذا التعبير ونلخصها في أربع أزواج، هي: التصور - الصورية؛ المحتوى - الشكل؛ الواقع المادي؛ الواقع الوجداني؛ المادية - المثالية.

سنكتفي بتحليل قصير لتلك الثنائيات، لنرى مرة أخرى، مقدار تأثير القبليات في تفكير بعضنا عند معالجة قضايا الشعوب العربية.

- الثنائية الأولى «التصور - الصورية»

في هذه الثنائية تتحول معطيات الواقع إلى مجرد صور عقلية، بلا مضمون حقيقي، وتفرغ في أشكال لغوية أو في إشارات أو في رموز. وينتج عن التصور أن واقعية الإنسان تنزع منه، بين تصوره للعالم ومادية الحياة. فمثلا، يؤسس عثمان أمين الجوانية على ثنائية: أنا «جواني؛ باطني؛ داخلي» وأنا «براني، سطحي، لا واقعي».

هنا نتساءل باستغراب عن طبيعة الأنا الثاني وعن وظيفته.

كما نتساءل: على أي شيء يعتمد عثمان أمين عندما ليؤكد أن الأنا الباطني / الجواني يمتاز بكونه وحده واعيًا، ويُعد وحده مستقرًا للحرية؟

فإن نحن قبلنا النظرة الثنائية إلى الأنا، استنتجنا أنه من العبث مقاومة الاستعمار ما دام الغرب لا يستعمر الأنا الجواني الذي هو وحده يتمتع «بالوعي وبالحرية» وهو وحده «واقعي»! وليست تلك النتيجة هي النتيجة العبثية الوحيدة التي يفرزها الذهن الخاضع للثنائية السابقة.

طبعًا، قامت «وتقوم» السياسة الاستعماريةعلى تخريب الأنا الداخلي عساها تستولي بسهولة على الأنا الآخر، الأنا الواقعي.

فالمثالية (ومنها الجوانية والبرغسونية) تخطئ لأنها تجزئ الذات إلى أنا جواني وآخر خارجي، ضد الواقع وبالرغم عنه.

الثنائية الثانية: «الشكل - المحتوى»

إنها ثنائية عتيقة تتجدد على الدوام بين الأدباء والنقاد. فعندما يعارضون بين الشكل والمضمون يفترضون وجود محتويات عاطفية أو فكرية يستطيعون أن يعبروا دون شكل. ذاك من جهة، ومن جهة أخرى، يفترضون أن الأشكال توجد منعزلة، قائمة بذاتها، تسبح فى الأثير إلى أن يتزوجها محتوى ما، مصادفة أو اغتصابًا، فيخرجها من «القوة إلى الفعل».

- الثنائية الثالثة: «الواقع المادى - الواقع الوجدانى /الشعورى»

ليس الشعور ثقبة مفتوحة على الفراغ. إنه دائمًا «متعدٍّ» (فى المعنى النحوى)، أى أنه فى حاجة ماسة إلى «مفعول به» إلى موضوعات «الواقع الخارج عنه». وعندما يلتقى الشعور مع واقع ما، يحدث التقاء ينعكس على الوجدان (أفعالا وانفعالات)، فالشعور - وعاء لكذا.. أو كذا.. وعملية استيعاب وانفعال وتمثل. يتناول الشعور الأشياء فيضفى عليها دفئًا ذاتيًّا يؤنسن العلاقة بها ويكسبها معانٍ، مع تحديد مواقف الإنسان منها.

توجد المادة، بالنسبة لفرد (على مستوى الإحساس)، عندما يحتك بأشياء فيحس أن ذلك الاحتكاك يحرك شعوره. وعندما يمتزج المحيط المادى بالمحيط الوجدانى، يرتقى الشعور إلى وعى.

الثنائية الرابعة: «المادية - المثالية»

يخلط بعض المثاليين بين مادية وأبيقورية، فى معنىٍ قدحى: مادية لا تبحث إلّا عن ملذات الحياة النباتية، لا مبدأ لها ولا أفق معنويًّا، قيمها أن تُرضى أكثر ما يمكن من الشهوات البهيمية..

ومن الماديين، بدورهم، من يرمون المثاليين بالرجعية والتخلف عن ركب التقدم، وكل مثالى النزعة إنما هو عميل للبرجوازية والأمبريالية، وذو ذهنية أسطورية... ويحشرون فى المثالية الإيمان بالمعنويات وبالتعالى وبأخلاق منبثقة عن الدين.

* * *

تلك ثنائيات أزواج تسود الأوساط الثقافية الثالثية، يغامر مثقفون بها ومن أجلها، بالجهد والوقت فى مشاجرات عنيفة تخلف جروحًا فى الجسد المجتمعى وفتورًا فى سير الفكر، وتفككًا فى الصف.

فمن كثرة ما شُحن الدماغ بالمطلقيات (ليبرالية واشتراكية) تضخم جرمه حتى لم يبق فيه فضاء لتحركات حرة. إن فكرًا لا يتنفس طبيعيًّا لا يتحرك طبيعيًّا، ومن كثرة ما لوثت الشعارات والقَبْليات (مثل الثنائيات السابقة) المناخ الثقافى، لم يعد يصل لمخنا الأوكسجين صافيًا. لقد باتت تلك المطلقيات عرقلةً فى سبيل التفكير المستقيم، لأن الوثوقية تسيطر على كل فعل ذهنى، وكأنها

اعتقاد منغلق وصادّ لكل ما عداه، وكأنها كذلك، مصادرات منهجية هى أيضًا منغلقة وصادة.

فبذلك التنميط للفكر الثالثى المعاصر، وبتكييفه ذاك، اتسعت الشقة وتعمقت بين المحاورين، فلا أحد ينصت لأحد (حوار غربى - غربى، وحوار الاشتراكى - الاشتراكى) أى منلوج متعدد الأصوات والعالم الثالث يبتلع كل تلك الخطابات بشرهٍ ودون تمثّل كافٍ. فأضحى النقد - الذاتى مجهولا، وسادت عمليات تبذير الطاقات الفكرية هباءً منثورًا، فى عالم اللامعقول حيث يُنسى الواقع فيلتزم كثير من المثقفين الثالثين بالدفاع عن اللا واقع: الإنسان ذى «البعد الأحَدى» المبتور من البعد الروحى.

* * *

طاقات الفكر ثمينة، كطاقة معتقدات العالم العربى، إلا أن الاستثمار عشوائى لا تكاملى، جدالى لا جَدلى. الناعورة تدور حول نفسها، رتيبة والرتابة ترفض التكامل ولا تعْترف بالتسامح، وتتجاهل حرية الرأى. إذن: الناعورة تدور (هذا واقع). وإنه لا خلاف بين الدورات (واقع آخر)، وواقع ثالث (مؤسف هذا الواقع الثالث)، إن المثقفين الثالثين المعاصرين يحبون الناعورة لدورانها على نفسها، بصدق لا ينحرف، وبصوت يحرص كامل الحرص على صون هويته من كل تطور. إنهم مثل الناعورة، يغنون لحنًا حزينًا للأبد، ويكررونه متحدثين أكثر من الكثير عن التقدم والتقدمية، ويتخاصمون من أجلها بل يتباغضون، إن كانوا لم يستفيدوا بعد من الوضع كى يتجنب الخطاب المنمق عن التقدمية، ويصمموا، عمليًا، لتقدميةٍ عملية..

محدودية الفكر

من وظائف التفكير أن يعكس ماحوله ويجرد المحسوسات ليرفعها إلى مستوى النظر. وسواء اتبع المفكر فلسفة مادية أو مثالية، لا يمكنه أن ينكر محيطه الحياتى، أفعالا وردود أفعال: اقتصاديًا (الإنتاج والاستهلاك)، وسياسيًا (مع تنوع الأشكال والدرجات)، ومجتمعيًا (بتأثيرات المجتمع المختلفة، وحسب الضغوط). فمثلا، للدين، بالعالم الثالث، حضور متحرك ومؤثر فى الأعماق، على كل أوجه المحيط الحياتى. فالوجود البشرى معطيات برانية وجوانية، فى نفس الآن، ولا تدرك المعانى والمحتويات الإعلامية إلا فى شكل من الأشكال المجتمعية. يتحقق وجودنا ماديًا ومثاليًا، وينسب إلينا لأننا نعانيه ونُحينه، فزيائيًا وسيكولوجيا. فلا مجال للخلق العفوى فى عالم الفكر أو المعانى والمثل، كما هو محال فى عالم الماديات. لابد من مواد أولية ومن فكر ليفهمها قبل أن يتصرف فيها. إن الذبذبة والحيرة عرقلة للفكر، كما تمنعه الوثوقية من مرونة التصرف فى الواقع. فالوثوقية المادية والوثوقية المثالية، تعارضان توحيد الرؤية والالتحام بالواقع. إنهما حاجزان فى طريق بناء المستقبل، بل حتى فى سيرورة تصوره، لأن للتفكير مضمونًا خارجًا عنه يتجاوزه. فمعيار اليقين ليس فى الفكر، بل فى علاقة الفكر بالحياة وتطابقه مع مجرياتها.

ذاك هو معنى «الإنسان حيوان سياسى/مدنى بالطبع»، على اعتبار أن السياسة هى تسيير

المجتمع وتنظيم العلاقة بين الأفراد. فلا قوانين قارة للفكر توجهه وتجعلنا نخضع لها قبل أن نخضعها لنا. كما أن محتوى المفهومين السياسيين والفلسفيين لـ «يمين» ولـ «يسار» دائمًا فى طلوع وهبوط، أى نسبيان، إذ لكل يسارى من هو أكثر يسارية منه، ولكل يمينى من هو أكثر يمينية منه.

الفكر أفقى، وإن ظنه البعض عموديًا، بيد أن أفقيته محدودة، مكانيًا وزمانيًا. إنه «آلة» تاريخية وتاريخية. ومن هنا تصدر عن الفكر دلالات حضارية. فعمليات الفكر قصديّة، غائية. لذلك، كلما أردنا تحليل فعل فكرى وجب أن ينصب التحليل، فى نفس الآن، على ما يسميه الظاهرتيون بالـ "noése"[٥] وعلى الـ «noéme»[٦]. معنى هذا أن مهمة التحليل القصدى هى إبراز ماهية الأفعال غير منعزلة عن ماهية الموضوعات.

يجب، كذلك، التفرقة بين «acte thêmatique»، أى ما يكون مبحثًا أو نموذجًا، ما هو موضوع لعمليات الذهن، وبين acte thêtique أطروحه، موضوع فعل الفكر.

* * *

لا توجد فى الأفعال الفكرية التفرقة السابقة التى يجربها الظاهرتيون. فماهية الفكر ومضمونه يتلازمان، كما أن أى فعل فكرى، بوصفه فعلا شخصيًا لا ينفصل عن فعل الفكر بصفته موضوعاً. فالشعور حضور الذات المباشر فى ومع محيطها. فمن وظائف الفكر المتميزة أن يعين الشعور ليرتفع عن مستوى الإحساس إلى الوعى ولينتقل بالوعى إلى التأمل فى علاقات الذات بمحيطها. إن التأمل شرط سابق على أى تخطيط للوسائل الكفيلة بإصلاح خلل علاقات الذوات بمحيطها وبالتاريخ. فمثلاً، لتاريخ الشعوب العربية بنيات دينية، لذلك، فالتفكير بحياد عن تلك البنيان نكران لواقع العرب، فأخذ هذا الإطار بعين الاعتبار، هو المؤشر للتأمل، وبالتأمل تنتصر قدرات الذات على التصرف فى المحيط. ينير الفكر الخبرات، وينظمها وينميها بقدر ما يتمسك بالواقع. فلابد أن يعرف الواقع قبل أن يعمل على تغييره.

ويعترف الفكر الحى بوجود شعور لا يخضع لتأملاته، وبحدس إحساسات غامضة، إنه شعور بّعدى بمبادرات تفاجئه أحياناً وبأفعال عفوية لا تدخل فى قبضة استنتاجاته، فيعمل على أن يستعين بها. فالذات أغنى من الفكر. إنها مبدأ الوحدة الفردية، «الشخص»، ومركز الرغبات والأفعال (الفكرية كُلها وغير الفكرية).

للذات حضور دائم فى أغلب لحظات الحياة النفسانية، وحضور فى جل الأفعال التى تربطها بالغير وبالعالم، إلا أن كلا الحضورين تعتريه ثقوب من الغفلة والتناسى، لأن الحياة ليست كلها يقظة وتيقظًا. هناك أغلاط يرتكبها العقل نتيجة للجانب اللا معقول من الذات. فكما للفكر انزلاقات عن المنطق كذلك تنزلق الذات، سيكلوجيًا، خارج الأفعال الطبيعية وردود الفعل المتوقعة.

---

(٥) فعل التفكير ذاته، ماهيته، الحياة السيكولوجية فى ذاتها.

(٦) التصور المرتبط بذلك الفعل، ما نفكر فيه.

يتحرك «الأنا» فى حدود لا تخضع كلها للفكر، ولا تسمح للفكر أن يتجاوزها أو أن يدعى القدرة على استنفاد كل الواقع. وإن الدين من تلك القطاعات التى تدخل فى الواقع، خارج حدود الفكر، وإن حاول بعض العقلانيين إنكارها.

* * *

الحياة شارع يتفرع عن دروب بلا عَد، ولكلٍّ وجهة، ولا أحد يعرف ما فى آخر الدرب ولا مقدار صواب اختيار الوجهة التى هو فى سبيلها. الزاد مجرد نقط استفهام. الكل يتساءل متى سيصل، وإلى أين وكيف سيسترسل، وفى آخر المطاف، ماذا سيجد، ومن سيكون فى الانتظار؟

وهل من رجوع؟

استهدف ماركس توحيد الإنسان مع الطبيعة عن طريق العمل الحر. وكانت غايته، كما تقول الأدبيات الماركسية حذف «الأساطير» وإبعاد «الدين» سعياً وراء تقريب الطبيعة من الإنسان وردم الهوة التى أقامها «الاستغلال» بين الإنسان وذاته. إن العمل الحر، فى اعتقاد ماركس هو الكفيل باستعادة هذا التوافق المفقود إذ يمثل السكن والمسكن الإنسانى للإنسان كما أن الطبيعة هى مسكنه الأرضى.

فهل الاستغناء عن الله (أو ما يسمونه «أوهاما») يقرِّب الإنسان من الإنسان ويعطى لإنسانية الإنسان أية كثافة؟

هل يُحقِّق ما توخاه ماركس؟

بكل موضوعية، الجواب سلبى، بل على العكس، لقد أضاع الإلحاد على الكثيرين من الناس فرصاً للأمل، وكسَّر داخل أعماق ذواتهم ما كان يحفز إلى التعلق بالحياة وتقبُّل القيم، تكسيراً دون بديل.

واضح أنه، إذا كانت معادلة الله بالعدم لم تحرر الإنسان، فإن مطلقية الله تذيب أية مطلقية يمكن أن تنسب لأى بشر، لأنها تعطى شعوراً بتساوى كل الأفراد أمام الله، وفيما بينهم، محررة للجميع من عبادة أى أحد. بهذا تفتح مسالك الحرية أمام الجميع. والحرية طاقات قابلة للتكيف مع متطلبات الحياة. ومن جهة أخرى، إن تأكيد الحرية للجميع وبالتساوى، إثبات لكرامة كل شخص، إنه تأكيد يقطع الطريق على كل تبرير عرقى أو فكرلوجى لاستغلال الإنسان من لدن أى تكتل أو أى إنسان.

إن الله لا يدخل فى تنافس أو مزاحمة مع أحد، لأنه كائن مطلق بمطلقية يختص بها وحده. وبما أنه خالق كل شىء وكل الناس، فهو غير قابل للاحتكارات، إنه بلا جنسية ولا عرق، هو للجميع، والجميع له. لقد أمنهم على تسيير الأرض وألزمهم بالتحرر، ثم تركهم يعملون ويتحملون مسئولية ما يعملون:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره﴾ (قرآن، ٧، ٨، ٩٩).

تدخلنا أعمالنا فى التاريخ، وبها نصنع التاريخ، ويكفى أن نحسن توجيه تلك الأعمال لنصنع تاريخاً مؤنسنًا. وبما أن أعمالنا تصدر عما نحن وما لنا فهى مرتبطة بالماضى كمؤسس، وبالحاضر كحقل، وبالمستقبل الذى هو آمال ومآل.

طبعاً، إن أنماط الزمن ينفى بعضها البعض، فينمحى الماضى ليحل المستقبل. إلا أن الإنسان يحياها متآلفة ومتفرقة، فى نفس الآن.

تلك هى القاعدة التى يقوم عليها تاريخ كل شخص، وإن كل شخص يواجه التاريخ العام بتاريخه الخاص. فالكائن البشرى يتعامل مع الآخرين فى ممارسات جماعية للتاريخ المشترك (بالانتساب إلى أسرة وشعب وأمة وإلى الإنسانية). هكذا ينتمى الشخص لتاريخين ممتزجين، لا ينفصمان فى الحياة السياسية ولا فى الأعمال الاقتصادية ولا فى الحياة الحميمة. الإنسان وجدانى ومجتمعى بالطبع، وفى تآن. إنه يعيش «حياته»، ولكنها حياة بـ/مع/من خلال الآخرين، لأن المصير الفردى ملتصق بمصائر الجميع.

وبالتوازى مع حياة التاريخين، يحيا الشخص فى تداخل أنماط الزمان أى فى الحينونة(٧).

إن الآخرين يعاشرون أعماقنا، والاستلاب الأقوى هو محاولة عزل (الأنا) عن الغير. توق الأنا دائمًا للآخرين ليكتمل. وليكن الآخر متديناً أو غير متدين، من قوميتك أو من غيرها، على آرائك الفلسفية والسياسية، أو على أخرى.

فالأمر يتجاوز المعطيات الخام للكائن الإنسانى. فالبيولوجيا والفيزلوجيا (التشريح ووظائف الأعضاء) لا تنفصلان عن السيكلوجيا (أحوال الشعور والقدرات ووظائف العقل). إن ظاهرات الكائن البشرى لا تمثل كل كينونته، إنه ملىء أسراراً، ويعى ذاته ككائن لا يقنع أبداً بكينونته، يعمل على اكتساب عنديات ليتجاوز الكائن المعطى إلى كائن يتصوره ويحن إليه. ذلك أمل دينامى ومثالى دائم الحضور.

* * *

يميل الإنسان بالطبع لأن يعرف «من هو»، و«ما هو»... وإن كثرة الأسئلة وتكرارها تنمى

---

(٧) حينونة:

(أ) لغة: أن يقرب الفاعل من الدخول فى أصل الفعل.

(ب) فلسفيًا: وضعنا هذا اللفظ فى مقابل «... l'en train de» فى كتابنا «De l'Être à la Personne» القسم الثانى:

الحينونة (فى الشخصانية الواقعية) = الحركة الزمانية التى تتلاحق فيها أنماط الزمن الثلاثة، الماضى وهو يمضى، والحاضر وهو «يحضر» ويمضى، والمستقبل، ولمّا يحضر كليًا، وكل نمط من تلك الأنماط، إنما هو مزيج من سابقه ولاحقه. فليس هناك ماض محض، ولا حاضر محض، ولا مستقبل محض: الماضى استمر وكان فترات حاضرة. فإن كانت هاته الفترات قد أصبحت وراءنا، فهى بالرغم عن ذلك، «حاضرة» فى الجامع الكلى المشترك بين الماضى والحاضر. إنه الزمان فى عملية التحيّن، أما المستقبل، فيتمتع بوجود سابق على تحققه: إنه فى توتر نحو ما سيأتى، نحو مشاريع وآمال.

اقتناعه بأنه ليس مجرد كائن، وأن له ميزات يسمو بها فوق الكينونة الخام، وأنه غير قابل للتشيئة.

يوجد ما يعلل ذلك الاعتقاد فى فلسفات وفى فكرلوجيات. أم الديانات الإبراهيمية، فقد خصت الموضوع بعناية أكبر إذ ركزت المبادئ الأخلاقية على الاعتراف للإنسان بالكرامة والبعد الروحى، وبنت على تلك المبادئ أصول الإيمان. فشهادة المؤمن بوجود الله شهادة منه على وجوده هو وشهادة منه على الالتزام باحترام صفات الله الحسنى والعمل على اتباعها حتى تسود سلوك المجتمعات البشرية. فالإيمان بالإنسان ملازم للإيمان بخالقه، وكلا الإيمانين يتجذر فى أعماق المؤمن، حتى أضحيا شرطاً لوجود الوعى ولوجود الضمير، أو لما نود تسميته بـ«الضمير الواعى». ونقصد به حاسة هى عند المؤمن شبه «صوت حى داخلى» يوجه سلوكه، بتعاون مع العقل، أو دون مساعدة العقل وقد يتعارض، فى بعض الحالات مع العقل. إنها قوة تأليفية تتركب من قدرات مختلفة، منها ما وصل العلم إلى معرفته، ومنها ما لم يصل بعد إلى تحليله.

الفصل الثانى

امتلاء فى فراغ

ماذا يعوق المثقفين الإصلاحيين الثالثيين، فى تنظيراتهم، عن اعتماد تلك القوى الهائلة التى تكمن فى الدين وتجدد باستمرار الإنفاق، ولا تنفد، برغم توظيفها الدائم عبر العصور والأجيال؟

لم تستطع الفكرلوجيات العربية ملء الفراغ الدينى، وما نظنها فى طريق تحقيق ذلك. فلا هى استطاعت أن تقضى على اليأس الذى اكتسح كثيرًا من أوساط الشباب، ولا هى أعادت الثقة بالنفس عند الجماهير. ويجوز التأكيد على أن تلك الفكرلوجيات لا تتوفر على حلول ضمنية، خصوصًا وليس لها رصيد تاريخى ومعنوى تطمئن إليه الشعوب فى المرحلة الحالية من الصراع المصيرى.

* * *

الشعوب الثالثية فى حاجة ملحة إلى الثقة بالنفس، أكثر منها إلى أقراص ومعلبات ممزوجة من هذه الفكرلوجيا أو تلك. إنها مشتاقة إلى من يمدها بوصفات عن المعاملات وعن التعامل مع التاريخ، فى حين أن المعابد والمنابر بالمساجد والكنائس، لم تعد قادرة على تلبية تلك الحاجة، إلا قليلا، وبمردود جد ضئيل. وأما المسئول عن الضحالة، فليس المنبر، بل من يصعد فوقه. مثل ذلك كمثل المنابر الصحافية، المكتوبة والمسموعة والمرئية. إن «رجال الدين» كالصحافيين، لا يمتازون عن مؤلفى الكتب المدرسية والثقافية! فالخطاب الدينى، كالخطاب الثقافى وكمهمة الصحافة الكل، يحتاج إلى مراجعة.

* * *

أين ستجد المراجعة النَّفَس الجديد، الدينامية التطورية الخلاقة؟ بالعالم الثالث، لم يبق بأيدى «رجال الدين» زمام الإرشاد والإنقاذ، أو أية سلطة معنوية ليؤثروا بها (إلا نادرًا). كذلك لا يستطيع الذين يدعون أن أخلاقية الدين وأدبياته تجاوزتها الأحداث أن يثبتوا صلاحية وفعالية ما تقذفه المطابع من تهجمات على القيم والتراث، تسميمًا للجو الثقافى وإخلالا للثقة بالنفس. فمن جهة، قلّ من يعمل على استثمار طاقات الإيمان ومن أخرى، لقد كثر من يهدم الشعور الدينى وكل خاصيات الشعوب، حتى انقلبت أفعالنا، على اختلاف المستويات، حركات بهلوانية. فمثلا، إن الخصومات العربية - العربية تكاد تنسينا مجابهة الأعداء الحقيقيين.

فلا عجب أن يفقد الشباب، مع الثقة بالنفس والتراث والقيم، انسجامه الذهنى والنفسانى. فها هو حائر وسئم ومتشائم، لأنه لا يؤمن بشىء ولا يأمل فى شىء. لقد أخذ يدير وجهه بظمأ عنيف نحو الغرب يستلهمه طرق الخلاص... وبما أن من الشباب من لا قدرة لهم على الاتجاه وجهة الغرب، يتمردون بكل أنواع التمرد الممكنة، يتمردون على فتات هويتهم المطلوبة، منحرفين عن المصير المحمل بالسلبيات. لقد انحرف مصير الثالثين فى غموض المبادئ، وفى غموض الفكر واللغات.

* * *

نعم، لابد من عقلنة وعقلانية، ولكن الواقع يثبت أن العمليات العقلية ليست دائمًا معقولة. فالعقل ضرورى، إلا أنه ليس دائمًا على صواب. فكما يحل مشاكل أو يعين على حلها، يغرق أناسًا فى مشاكل، ويترك آخرين فى صراع وعذاب مع أسئلة عقلية.

يشك الفيزيائى (برنارد يسبانيا) أن يصل العلماء والمفكرون إلى صنع رؤية غير سطحية وغير تعسفية عن العالم، وعن اندماج الإنسان فى العالم، إذا كانوا يجهلون الفيزياء كليًّا. لكنه يعترف، برغم ذلك:

«إن الفيزياء، وإن كانت تقوم على أسس علمية، لا تستطيع الجواب على كثير من أسئلة الإنسان، ومن واجبها ألا تتجاهل بعض المشاكل الفلسفية الرئيسية»(١).

فالعلوم لا تطفو على سطح بحيرة معزولة، إنها، كما يقول أحد الخبراء من أصحاب (جائزة نوبل) مطالبة بإلحاح واستعجال:

«أن تعترف أنها جزء من الثقافة، وأنها لا تنمو إلا باندماجها فى الثقافة»(٢).

* * *

ما يهدد المعرفة العلمية هو التصور الأسطورى الذى يكونه عنها بعض المعاصرين، إذ يسبغون عليها أسرارًا وقوى خاصة، ويتناسون ما بعد التجربة المخبرية والتطبيقات الميكانيكية: يتناسون الإنسان.

فالعلماء محاصرون بأسئلة ما ورائية، هى نفس الأسئلة التى تحاصر اللهوتيين.

فالعالم إنسان أولا، ثم يصير فيزيائيًّا أو فلكيا أو... فهو وإنْ حاول تجنب تلك الأسئلة، داخل المخبر، تبقى قائمة الذات فى ذاته، لا حجاب يبعدها عن البصيرة وعن «الحاسة السادسة» أو ما سميناه بـ«الضمير الواعى»:

من نحن؟

---

(١) B. d'Espagnat, **A la recherche du réel. le regard d'un physicien.** Paris, gauthier-Véllard.

(٢) J. Prigogine, **La nomelle alliance, métamorphose de la science,** gallimard, Paris.

ماذا وراء الأشياء؟

وماذا بعد الأشياء؟

من أين أتينا؟

ما مستقبل الإنسان؟

الإيمان طاقة ثمينة...

على الأسئلة السابقة، يعطى الدين، «الدين المتجذر فى الإيمان» أجوبة لا تقنع جميع الناس، ولكنها أجوبة ملأت وتملأ الفراغ، وترضى المئين من ملايين الناس وأطفأت وتطفئ قلقهم، فى حين أن العلم والتكنولوجيا لم يصلا إلى إقناعهم. معطيات الطبيعة كثيرة، وتعامل الإنسان مع الطبيعة متطور. أما نتائج البحث العلمى فنسبية، كما هى نسبية علاقات الإنسان بالعلم.

بيد أن هذا لا يتناول الأسئلة السابقة، والعلم لا يقدر على إنحائها ولا على الجواب عنها، وهى أسئلة من صميم الثقافة التى تحتوى العلم كما تحتوى الفلسفة والدين.

* * *

تصور (نيوتون) الطبيعة على شكل ساعة جدار كبيرة تدور تحت تأثير الجاذبية الكونية، لها حركات، وبلا تاريخ. فهى لذلك غير قادرة على التطور ولا على أن تخلق بشرًا سويًّا. من هنا ضرورة وجود إله ليقوم بالمهمة، وفلاسفة ليتباحثوا فى الموضوع.

ليست نظرية نيوتون سوى محاولة عملية، ولكنها لا تخلو من ميل إلى ذيل.وتكملة ما ورائية. اللاحظة الثانية هى أن أية نظرة علمية عن الطبيعة لا تعرف الاستقرار. فمثلا، نظرية نيوتون عن الضوء قد تبدلت مرات، منذ ١٦٦٩ إلى اليوم مظهرة بذلك أن نتائج الأبحاث العلمية لا تتمتع بالمطلقية.

ويأتى (داروين) فيعلن عن الدفعة الخلاقة الهائلة التى تلبس الحى أشكالا عليا من التنظيم. وتسوقه تلك النظرية، تدريجيًّا، إلى منظومة محكمة التركيب، هى الإنسان.

فكيف حصل تواكب التطور البيولوجى مع التطوّر الكونى؟

يجيب عالم معاصر جوابًا يظهر، لأول وهلة، أنه غير علمى، إذ يؤكد أن ذاك التواكب قد حصل بالمصادفة[٣].

أصناف من العلم لا تستعمل «المصادفة»، وتلجأ إلى مفاهيم أخرى. فمثلا، إن علم الحركة الحرارية (علم الطاقة: La Thermodynamique) يصرح بأنه يقف عند الاحتمالى.

لكن (إيليا برغوجين) تقدم، منذ أمد قريب، بنظرية جديدة. يؤكد أن بالطبيعة ميلا إلى التنظيم

---

(٣) انظر: J. Monod, Hasard et nécessité, Paris, Le Seuil.
يُعد جاك مونو (جائزة نوبل فى البيولوجيا) رائدًا معاصرًا فى اعتماد المصادفة عنصرًا فى السببية العلمية.

يستغل المصادفة. فتاريخ الكون، هو أيضًا، تاريخ تصاعد النظام، ووظيفته النظام، أن يقضى، رويدًا، رويدًا، على اللا نظام.

تملك نظرية تغير النظريات السابقة عن ظهور الحياة والإنسان، حيث تجعل الحياة ظاهرة تنظيم ذاتى للمادة وهى تتطور من حال بسيطة إلى حال أقل بساطة، ثم تأخذ فى التشعب، حسب درجات متوالية تصاعدية من التركيب. فى هذا التطور الخلاق، تتلاقى الفلسفة مع العلم، ويتصلان معًا بالدين.

يقر الفيزيائى بوجود واقع مادى وراء الظاهرات التى يشاهدها، وفى الوقت نفسه، يقر أن ذلك الواقع لا تتناوله التجربة، وليست التجربة قادرة على ذلك لأنه يمتنع عن أن يُترجَم بألفاظ أو برموز، ولو رياضية. من هنا تستنتج الفيزياء المعاصرة أن «واقعًا لا طبيعيًا» هو وحده يقدر أن يعبر عن ذلك «الواقع الملثم». يطلق (برناردیسبانیا) لفظ «كائن» على ذلك الواقع - ما وراء الواقع اسم «الله». فالله هو:

«ذلك الواقع المستقل المتميز عن واقع الظاهرات»؟[٤]

* * *

الواقع ليس مجرد معطى، أشياء محسوسة أو موضوعات فكرية، ولكنه، أيضًا، علاقات تربط (الأنا) بأنوات أخرى، بذوات تحس، وتشعر، وتفكر، وتفعل، وتنفعل، وتتفاعل، وتجعل من معطيات الواقع أدوات.

يقول (إمنويل كانط) عن الجدل إنه «منطق الظاهر»، فى مقابل التحليل الذى هو «منطق الحقيقة». **فظاهر العقلانية يقوم فى صرامة الاستدلال**، إلا أن تلك الصرامة لا تصل إلى الحقيقة، وإنما تقف عند الظاهرات.

قامت حركات إصلاحية، ما بين دعوة إلى الرجوع إلى الدين، ودعوة إلى العلمانية، وثالثة إلى الماركسية، وأخرى إلى فكرلوجيات،... إلا أن أحدًا لم يدع إلى تأسيس جبهة داخلية تحترم حرية الرأى والمعتقد، وإلى تعاون مستميت بصدق وتسامح ضد التخلف. عوض ذلك، إن التناحر مسترسل يشقق الصفوف، والتعصب يعضد العصبيات.

والأدهى أن كل تلك الحركات تؤكد أن لها وحدها القدرة على الإنقاذ.

* * *

من جراء ذلك، تعيش الشعوب الثالثية يتمًا وضياعًا، أمام مثقفين بلا قدرة على ملء الفراغ، والقيام بالوصاية والترشيد، فلا هم اتحدوا، ولا هم استقاموا على طريق الوضوح والتسامح. يدعى كل اتجاه أنه وحده على الصراط السوى، وما عداه فهو ردّ.

---

(٤) المرجع المذكور سابقًا.

فما هى الحجج؟

يجيب كل فريق أن العلم (علوم الطبيعة) يؤيد المبادئ التى يدعو إليها، واختار اللجوء إلى المعرفة العلمية للبحث عن حلول للإشكاليات الكبرى. لكن تلك المعرفة وحدها لا تعطى إجابة، والحيرة الوجودية تزداد تعمقًا. فللعلم مهام ليست من قبيل الهموم المصيرية. إنه يساعد على حل معضلات معرفية ومادية. ولكنه لا يشفى غليل إلحاحات الأبعاد الروحية والوجدانية. إنه فى عون الإنسان ولا يجدد إنسانية الناس.

* * *

هنا نتساءل: بما أن التحليل هو «منطق الحقيقة»، كما جاء عند (إيمانويل كانط) ألا يتضمن التاريخ الذى هو وعاء حى لكل منطق ولكل حقيقة؟

إن الحقيقة التاريخية، لأى شعب، هى ما تكوّن أصالة حياته، نعنى المناخ «الروحى» والذهنى وما يحيط به من أعراف وعادات.

فالشعب (أو الفرد) الذى يضيع حقيقته، ينفصل عن الحوار مع التاريخ، ويستأصل الأوتار الوجدانية التى تربطه بالذاكرة الجماعية، بالوطن والمواطنين، وبالثقافة القومية. فلا ريب أن كارل ماركس كان أكثر واقعية من بعض الفكرلوجيين المتعنتين، عندما قال عن الدين إنه قلب عالم بلا قلب، وروح وضع من أوضاع الشعب[٥]. فالماركسية هى أيضًا، تطمح إلى تفتح الإنسانية بتحريرها من الاستلابات المختلفة، من كل ما يشعرها بنقصان ذاتى-أو تواصلى، وبحنين إلى ما فقدته، عبر الأحقاب، تحت ضغوط البنيات الاستغلالية. إلا أن الماركسية، عند التطبيق، أصيبت بتصلب فى الشرايين المذهبية...[٦]

* * *

لم تقصد الفقرات السابقة إلا التحذير من الاعتماد على العلم لاثبات مشروعية الإيمان. لقد حاولت أن تظهر أن العلم محايد بالنسبة للمشكل، فلا هو يؤيد الإيمان ولا هو يؤيد الإلحاد. إن الإيمان من التجارب الوجودية[٧] التى تنشط فى أعماق الوجدان، وليس بقادر على تحسس جريانها وكثافة تأثيرها، إلا من يعانيها مباشرة، ذاتيًا. فإذا كان الحب والحنين، والحَصَر والكآبة وغيرها من المشاعر تستعصى على موازين المختبر والكميات الرياضية، فالإيمان، أيضًا لا يدخل فى مقاييس وقوالب التجريبية العلمية.

العلم لا يحل المشاكل التى يضعها الدين أو توضع عليه أو عنه، كما أن الدين لا يمكنه أن يتدخل فى شئون العلم. أما نقطة الالتقاء فهى أن العلم يعمل على تقدم المعرفة لمصلحة الإنسان

---

(٥) انظر كتابنا: ص ٣٢٦-٣٢٧ Le monde de demain.

(٦) سنعود إلى تحليل ذلك بتفصيل فى الدفتر الثانى «أزمة النماذج».

(٧) فى معنى «existentiel» (انظر جدول المصطلحات).

(المتدين وغير المتدين). أما الدين فيدعو للسلام وللسلم ويعلم مكارم الأخلاق وتقديس الكرامة والمروءة، ويجذر المحبة ويمرن على صدق الوجود وعلى الصدق فى المعاملات بين جميع الناس.

لكن الدين والعلم، مع احترام كل منهما، حياد الآخر، قد تعاونا أحيانًا، وهما مدعوان اليوم، بإلحاح، لتعاون أوسع وأعمق: إنهما معًا يمثلان طرقًا مختلفة للبحث عن الحقيقة. يقينًا أن العلم (فى معناه التقنى المحدد اصطلاحيًا)، لا يؤيد الدين ولا يرفضه (الدين بالمعنى الأصلى وفى صفائه، أى كما هو لا كما تلوث على يد بعض معتنقيه وشوهه الخصوم). يقينًا أن الدين ليس علمًا (حسب المعنى الاصطلاحى)، ولا يعارض العلم فى حدود صيانة الإنسان كقيمة فى ذاته، وكرامة مقدسة.

إن قسطًا وافرًا من سوء التفاهم بين أنصار الإيمان وخصومه يأتى، فى كثير من الأحوال، من سوء الفهم. تلك هى النتيجة الأولى للعرض السابق. إن مفهومى إيمان وإلحاد معًا فى حاجة إلى دراسة موضوعية تخرجهما من الإبهام وتزيح عنهما الغطاء الخرافى الذى يغلفهما داخل الأذهان، فبهذه العملية تتضح مشروعية العلم، كما تتضح مشروعية الدين ويصبح من المكتسبات إمكان تجنيد الطاقات الثمينة جميعها، كمطلق سليم وإجرائى.

الكينونة «قضية» لا «القضية»

أستبقى الإنسانية غارقة فى السقوط الحر إلى ما لا قعر له؟

قريبًا سيلعب المستقبل آخر ورقة بيده: انقراض أبدى/نهائى، أو يقظة حق.

بذاك الـ «أو..» يتلاعب بنا مصير محتوم لا يرحم ولا يذاع له سر، ولا يسمح بأكثر من اختيار موقف من بين موقفين: «أن نكون، أو لا نكون. تلك هى القضية» (شيكسبير، هامليت).

أن «نكون» فى هذه الفترة من المعاصرة، ونرغم على أن نبقى على ما نحن عليه (كينونة قلقة تعانى دومًا سلسلة صدمات وفواجع وأزمات متتابعة). إنها حياة لا تستحق أن تصان.

أو «أنْ لا نكون»، بمعنى أن نكون على أحوال أخرى، من بينها العدم. ومهما تصورنا من احتمالات لـ «أن لا نكون»، فإن أقربها للتحقيق هو أن توجد كينونتها فى أوضاع مغايرة لأحوالنا الحالية. بيد أنها مغامرة، إذ لا ندرى نوعية الوجود الفردى والتواجد الجماعى، كما نجهل مقدار انسجام المجتمعات بالطبيعة، وانسجام الفرد فى المجتمع.

«أن نكون» (كينونة بشرية) هو أن تصبح للإنسان قدرة على التشخص، أى على انسجام شخصياته فى شخصه[(٨)] وعلى أن يتناغم شخصه مع الأشخاص. ذاك هو الشرط الأساسى المنشود لتتخطى المجمعات البشرية ظروفها المتردية حاليًا، وإلا من الخير «أن لا نكون».

* * *

---

(٨) للتمييز بين شخصية (personnalité) وشخص (perssonne) انظر: م. ع. الحبابى، (من الكائن إلى الشخص)، القاهرة، دار المعارف، القسم الأول.

بدون تغير، لن تنسخ أنسنة الأوضاع الحالية، ولن توقف اتجاهاتها غير الإنسانية. فلكى يحصل التوافق المجتمعى الذى تتحقق به الذات مع وبين ذوات، لابد أن يخضع الواقع إلى القيم الكفيلة بالنجدة ضد عبث الأزمات وجدليتها الفوضوية، وضد قوى الأنانيات والتعصب والشر. إن القيم المشتركة الشمولية هى الهادى على دروب المسيرة نحو الحياة المتكاملة. فبدون ذلك يتحول المصير إلى طاغية يمرح، ويعبث بالكائنات وبالأحداث.

أن تتحقق كينونة ما وتستمر فى البقاء ليس غاية - فى - ذاته، نعنى ليس مجرد وجود أى موجود.

فعندما يصرح (هاملت) بطل شيكسبير: «أن نكون أو لا نكون تلك هى القضية»، نود لو قال «.. تلك قضية» لأن هناك قضايا أخرى أصيلة منها:

- أن نكون ما؟ أى شىء؟

فلا أحد من البشر يقنع بـ «أية كينونة»، بكينونة على العموم فيكون ككائنات من نوع الورق أو البطيخ أو البرغوث.

- الإنسان (خصوصًا إنسان اليوم) يواجه أزمات تتنزل عليه من حيث يدرى ومن حيث لا يهتدى. كينونته منبع والوسط المحيط بها منبع. إن المنابع تتفجر من حيث لا يتوقع. فما هى المواقف التى يجب اتخاذها حتى لا يجرفه الفيضان؟

لكل ذلك فإن الكائن الإنسانى فى هذا العصر، مدفوع إلى أن يتساءل، تساؤلات بلا حصر، عن لغز الواقع علّه يسبغ شفافية على مصيره فيخرج من الإشكاليات والحيرة. فإذا وفق، واعتمد على قيم شمولية إنسانية، أمسى قادرًا على أن يتجاوز الخيبة وقابلا للتفتح والتجديد. إن مواجهة المصير اختيار حاد: إما أن استمر كائنًا، وإما أن انعدم من الكون.

نحن بين قطبين للوجود، وإن أى طرف ثالث لمرفوع. فعبور ما بين القطبين المتناقضين لا يقع إلا عندما يتخذ الوجود معنى به تحدد الأوضاع وأنماط الوعى بالوجود ونوعياته. فبدون ذلك يتساوى الوجود والعدم: فكونى موجودًا إنسانيًا يعنى أنى «كرامة» أعيها ويعترف لى بها الآخرون.

فأن أكون - بلا كرامة يعنى أن العدم حل بى ويغشى وجودى، لأن العدم إذا تسرب إلى الموجودات أوقف تشخصنها. فالحد الفاصل هو: إما مع اعتراف بقدسية الكرامة الإنسانية وشموليتها وبكل ما يتضمنه ذلك الاعتراف من قيم، وإما بـ لا اعتراف بالكرامة.

إذا توفرت الشروط التى تسمح بتشخصن كينونتى، تحقق وجودى إنسانيًا، ولن تبقى قضية / إشكالا / تساؤلا بين «أن أكون أو لا أكون»، لأن بالتشخصن السوى تنفتح السبل نحو التعالى.

* * *

إن دور القيم هو صيانة كرامة الموجود، وحول القيم تتمحور إشكالية الوجود. وبتعبير آخر: **إن سند إنسانية الموجود هو الكرامة، والكرامة هدف القيم.**

والمقصود بـ«كرامة»، ليس أن يحترم المرء ذاته و«يكرمها» نرجسيًا، بل أن يكرمها بتكريم كل الذوات، ويحبها من خلال محبة كل إخوانه البشر، دون أى اعتبار عرقى أو تعصب لقرابة دم، أو قرابة ثقافة أو معتقد:

إذ «لا فضل لعربى على عجمى، ولا عجمى على عربى إلا بالتقوى» (حديث نبوى: مسند أحمد بن حنبل).

لأهداف التقوى حقلان، يقوم المصلحون فى الحقل الأول بتضييق الفجوات الفاصلة بين الشعوب وبين الأفراد، فى مختلف الميادين. أما فى الثانى، فيعملون على إنارة القلوب وتوثيق العلاقات فيما بينها، ليحصد الجميع روح تضامن عالمى مستمر.

* * *

حدد الإسلام لـ «كرامة» شروطًا وغاية وضمانة. مجمل الشروط هو اتخاذ الوقاية ضد الإساءة للنفس وللغير. أما الغاية فهى صيانة القيم، فى السلوك الشخصى وفى المعاملات، فـ: «الدين المعاملات».

إن من حسُنت أخلاقه فعدل وأنصف، حسن دينه. ومن لا يسهم فى اتقاء الشر والإضرار بالمجتمع، كان عدوًا لنفسه وعدوًا لله:

«الإسلام إيمان، وقول، واعتقاد، وعمل» (حديث نبوى انظر: سنن أبى داود) وجاء فى حديث آخر:

«الإسلام إيمان واستقامة» (مسند ابن حنبل).

فالانحرافات عن سواء السبيل تبذير للطاقات البشرية و:

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ (قرآن: ٢٧، ١٧).

وأخيرًا يحدد الإسلام ضمانة للكرامة: إنها مخافة الله، أى الاحتراز بطاعته عن كل ما يُدخل فى زمرة:

﴿الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون﴾ (قرآن: ٢٧، ٢)

تلك الأرض التى استخلف فيها الله الإنسان، وهذا تكريم لمن يحسنون المحافظة على الكرامة.

وأصل الكرامة والشرف هو التقوى:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم، من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (قرآن: ١٣، ٤٩).

فالتقوى إخلاص. من هذا المنظار يفهم مقام «المتقين» فى الإسلام: يقاومون باستمرار النفس الأمارة بالسوء حتى لا يتسرب إلى معاملاتهم ونواياهم غش أو نفاق. أفعالهم صدق، وقصدهم إخلاص، وسلوكهم محبة. بذلك يرجون رضا الله وحبه. ومن أحبه تعالى كتبت له «الجنتان»: اطمئنان النفس فى الدنيا ورضا الله فى الآخرة (سعادة الدارين).

* * *

القسم الثالث

طاقات الإسلام

«يخطئ من يظن أن الدين نقل محض من غير نظر ولا دليل، ويكفى أن يعمل مقارنة بين المذاهب الإسلامية التى تلقتها الأمة بالقبول، وهى تأخذ بالنظر والقياس والمذهب المتحجر الذى لا يقف مع مظاهر النقل...»

عبد الله كنون،
جولات فى الفكر الإسلامى

الأوهام وبؤس الواقع

العدو معروف: التخلف.

الواجب واضح: الاستنفار العام ضده.

بالنسبة للثالثيين، تلك هى الواقعية، وذاك ما تفرضه العقلانية.

إذن، يجب أن تكون المعركة حامية، وأن تواجه باستراتيجية شاملة لا يسمح لمن يقودونها بانحراف إلى حرب داخلية طائفية.

فى هذا النطاق يتقدم الإسلام، بما له من طاقات بالفعل وأخرى بالقوة، ليكون منطلقاً للمعركة، أو على الأقل حليفاً رئيسيًا فيها. فمثل المصلحين العرب الذين يوجهون ضرباتهم الفكرلوجية صوب الإسلام، كمثل من لا يحسن فتح صندوق به كنز فيحرقه ويضيع الثروة والجهود والزمان.

فمتى سيؤخذ بعين الاعتبار جميع ما للشعوب العربية، من ترسانات فتتسلح منها معنويًا وماديًا؟

ومتى ستستغل ما لها من شتى أنواع الطاقة الخام فتتجند لها وتتجند بها؟

***

من اللامعقول أن يشنها فكرلوجيون عرب شعواء على الإسلام وباسم «التقدمية» و«العلمية»، فيخلقوا توترات داخلية تكسر شوكتهم وتنال من قواتهم الدفاعية ضد الأعداء، ومن إمكاناتهم الهجومية على التخلف. هناك هيجان دون استراتيجية، وهناك معارك طاحنة ولكنها فى الواقع، تناحرات داخلية: «خطوة إلى الأمام» وخطوات «إلى الوراء»...

فهل هذه هى «التقدمية»؟

وهل هى «العلمية»؟

يدعون أن ما ينفرهم فى المسيحية والإسلام روائح ميتافيزيقية، لكن:

متى كانت الميتافيزيقا معادية للفكر وللعلم وللتقدم؟

عنون عبد السلام بنعبد العالى أحد كتبه بـ «الميتافيزيقيا والعلم والأيديولوجيا»[1]، فضم هذه المفاهيم بلا ترتيب تصاعدى، يعنى أن وحدة ما تجمع بينها: إنها جميعاً مفاهيم تعبر عن ثلاثة جوانب

---

(١) الشركة المغربية للناشرين (الرباط) ودار الطليعة (بيروت)، ١٩٨١.

للحقيقة المعرفية / الفكرية / التصورية. وقد يجوز تسميتها بثلاثة مناهج. فالحقيقة «واحدة» ولكن طرق إدراكها متعددة. فالفكر:

«يتعشق الوحدة والانسجام والذاتية والامتلاء، ويهاب التشتت والتعدد والتناقض والاختلاط».

ويضيف عبد السلام بنعبد العالى أنه يتساءل عن مخاض فكرى وهو ما يبرر عملية الجمع، ويبرر العنوان الذى:

«حاولت أن يكون عنواناً متعدداً يعكس حركة تفاعل بين الميتافيزيقى والعلمى والأيديولوجى»

فلابد للباحث أن يراعى حركة التفاعل بين المستويات النظرية الثلاثة (وهى من وجهة نظرنا: جوانب الحقيقة الثلاثة والطرق الثلاثة للبحث عنها).

* * *

يقاوم آخرون الإسلام باسم حرمة الواقع، أمام الفكر الأسطورى.

حقًّا إن «المتكلمين» لم يعد لهم حضور فى الأوساط المفكرة وإنما يجترون ما تبقى عن الفرق الماضية، بل إنهم لا يجترونه، وإنما يرددون ما يقدرون على حفظه عن ظهر قلب من قولات معزولة عن مناخها الثقافى.

يقيناً، كذلك، أن «رجال الدين» قد أضاعوا، أو على الأقل أضعفوا وضعهم كرجال رأى وجرأة وشهادة وتضحيات، فأضاعوا قدسيتهم ومعها قدسية ما كانوا يمثلون من مبادئ وأخلاق حتى تلاشت التقاليد والرموز، التى ملأت، حتى الأمس القريب، عالم المتدينين وأطَّرَتْ سلوكهم.

بيد أن المشاهد اليوم هو أن نفَسًا إيمانيًّا جديداً يهب مشيراً إلى اتجاه مأمن تطمئن له النفوس الحائرة وتستلهمه فى المعارك الضارية التى يفرضها عليهم المصير الحالى. إنه مأمن من قساوة حياة تقطعت فيها أوصال الأخوة والصداقة وتوالت فيها المفاجآت المتوقعة لغد تهدده تفجرات قد تنمي عزلة الفرد فى وسطه، وفى الأسرة وتقطع حتى المونلوج الحميم. لقد انسحق الوقت داخل الذات ولم يعد له طول ولا عرض، كما لم تبق للمكان كثافة. المكان يتمطط ويتمطط، فلا يدرى الفرد أين يضع رجليه فينطوى، متحسراً على نفسه. ولكن، فى داخله أيضاً تقلصت الأبعاد ولم تترك صدى.

إنها حيرة وفزع، فقلب البعض بصرهم إلى البصيرة مستنجدين، فدلتهم على اطمئنان الإيمان.

* * *

أهو التهاب عابر؟

أم نهضة الدين بعد ما عرف من هزات عملت على استئصاله؟

أهو انفتاح اقتضته روح التسامح؟

مهما يكن، إننا أمام وجه جديد من الواقع، وباسم هذا الواقع يلزم على الفكرلوجيين الثالثين أن يعيدوا النظر فى قبلياتهم. أليست الفكرلوجيا المتفتحة حقاً، الملتزمة حقاً، هى كل نسق تنظيرى

يرمى إلى تجنيد عام لكل إمكانات الفكر، ولكل طاقات الوجدان؟

فلا يبرر وجود أية فكرلوجيا ويعطيها السدد إلا تفتحها على تواجد كل التيارات والطاقات الشعبية. فبدون هذا الالتزام، لن تكون إلا دمغوجيا أو كلاملوجيا.

***

يمكن وضع القضية التى تهمنا هنا (استثمار طاقات الإسلام المعنوية) من وجهة نظر فلسفى، وبكامل الاختصار الذى يسمح به نطاق هذا البحث، مظهرين أن «العلمية» لا تؤيد «التقدمية» فى مواقفها المهاجمة للإسلام، وللأديان على العموم.

اللغز الأكبر، ونقط استفهام

إذا كان «ماذا؟» أو «لماذا؟» هما السؤالان الخاصان بالفلسفة، وكان الجواب على «كيف؟» هو اهتمام العلم، فما هو سؤال السياسة؟ (نعنى بسياسة الصنف المعرفى المتعلق بالحكم وعلاقاته بالمحكومين)؟

قبل الجواب، نلفت النظر إلى أن السياسة، من حيث إنها تنظم علاقات مجتمعية تثير حتمًا قضية الأخلاق (الغاية والوسائل)، أو على الأصح: كان عليها أن تلتحم بالأخلاق.

تصف السياسة «كيف» أحوال أمة وأوضاعها ونوعية علاقاتها على اختلاف المستويات المجتمعية، لتغيرها. فالمشروع السياسى / الإصلاحى / الفكرلوجى / المجتمعى يرمى دائمًا إلى غاية: تحويل الذهنيات والسلوك الجماعى لتغيير ما بالناس، وهذا ما تلخصه الآية القرآنية:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (١١، ١٣).

ولا يتغير «ما بالنفس» إذا لم يتغير المحيط المجتمعى.

تدرس السياسة الملتزمة ما هو كائن لتحقق ما يجب أن يكون. إنها تضع، مسبقًا، قيمًا وتصورًا لما تتوق إليه. تلك الغائية السياسية هى ما يفتح المجال لتوظيف الإسلام، بمعنوياته وقيمه فى الدفعات الحاسمة. فشروط التحالف متوفرة بين المشاريع الإسلامية ومشاريع الفكرلوجيين / الإصلاحيين / التقدميين.

***

إن سؤال السياسة مزدوج ومضاعف.

«ما العمل؟» «كيف العمل؟».

فلابد للإجابة عنه، من تجنيد كل الطاقات الفكرية والعقائدية والمادية. عبث، إذن ما يحاوله كثير من الفكرلوجيين الثالثيين، والعرب منهم، فى السعى لإفراغ الساحة من الدين. إن تجارب متكررة أكدت أن ما فى الوعى وما تحت الشعور، عند الجماهير، يحبطان المحاولة فترجع القلوب صداها.

قد يكابر البعض فى هذا الأمر، فلندع إلى الاحتكام أمام التاريخ، قديمه وحديثه. إن هدير الزلزال العالمى الذى أحدثته الصحوة الدينية الحديثة ليصك الآذان. إنها ثورة مباغتة، لا غربية ولا شرقية، فجرت طاقات روحية، فانبهر الغرب، لأول مرة منذ قرون، أمام هذا التيار، وبدأ الغربيون يعيدون النظر فى الصورة الأسطورية التى كانت لهم عن الإسلام مثلاً(٢).

* * *

يثبت تاريخ الفكر المعاصر أن اللاعقلانية صاحبت تقدم العلوم الحديثة. وقد أثر ذلك على الاعتقاد السائد على مطلقية ثلاث قواعد كان الناس يظنون أنها قوانين:

– لا معرفة صحيحة / يقينية دون عقلانية.

– لا ثقب فى العقلانية.

– اللا – عقلانية مفارقة فكرية، فإذا تسربت إلى الذهن والبرهنة قضت على اليقين العلمى.

من يستطيع أن يثبت أن العقل صاف من كل شائبة لا – عقلانية (وجدانية، وحدسية وعقيدية، وأسطورية،..)؟

ومن يستطيع أن يعارض فى أن الميتافزيقا كانت قاعدة لجل الاكتشافات والاختراعات فى العهود القديمة والوسيطية؟

إن الميتافزيقا نسق نظرى له شرعيته وله إمكاناته فى تقدم المعرفة. وإن كل الفلسفات المتعلمنة (scientistes) باءت بالفشل لأنها أبعدت من حقل التأمل ما ليس بتجريبى وعقلانى.

الإنسان مهموم دائمًا بالماهيات والعلل، ويؤرقه دومًا البحث عنها فينجذب إلى التأمل، والتأمل لا يمكن اعتباره ظاهرة عرضية عابرة: إنه بُعد أصيل / نوعى فى الفكر الإنسانى. فلا غلو فى القولة الشهيرة:

«إن كل إنسان يحمل معه ميتافيزيقيًّا دون شعور بوجوده».

يتساءل البشر باضطراد:

– لماذا؟

– كيف؟

– متى؟

– أين؟

ومن تلك الأمثلة ينبثق سؤال آخر:

ما العمل؟

---

(٢) انظر، مثلا فى دراسات فلسفية وأدبية، العدد ٤ (١٩٨٠) والعدد ٥ – ٦ (١٩٨١)، دراسة عن «حقوق الإنسان فى الإسلام» لـ M. Poisard وأخرى لمحمد عزيز الحبابى «الإسلام يسير» تحليل لكتابين لروجى غارودى وثالث لجاك بيرك.

فلا غرابة أن تنطلق الفلسفة والمعرفة من تلك الأسئلة، مثلما انطلقت منها السياسة. لكن أحدًا لم يصل إلى التعبير عن جوهر ماهية الأشياء. فاكتفى العلماء بسؤال واحد: «كيف؟»، اعترافًا منهم بالعجز عن أي سؤال آخر، وبقي سؤالهم الوحيد هو نفسه محيرًا، بلا جواب في كثير من الحالات.

موضوع العلم محدد بالواقع، محاصر بالواقع.

أما سؤال السياسة فمفتوح أبدًا لكونه لا ينصب على موضوع واحد، ميادينه هي المجتمع، والواقع التاريخي، والفلسفة، والدين، والعلم، أي الواقع في عمومه. إن **مشروعية السياسة تستمد من فعاليتها**، حسب الموقف الذي تفرضه صيرورة الواقع. سؤال السياسي واحد، إلا أنه مفتوح على مواقف عديدة متغيرة، تبعًا لتوظيف كل ما يحصل من تحولات في العلم والدين والفلسفة والمعاش...

فلا نجاح ولا نجاعة لأية سياسة تفرط في هذا الطرف أو ذاك، خلافًا للعلم، إنه مضطر، قبل كل شيء، لعزل العناصر بعضها عن بعض.

ذاك فارق قمين بأن يسترعي الانتباه: بين فعل لا فعالية له إلا في التحليل (أي تفكيك عناصر متواجدة)، وفعل لا يحقق مراميه إلا بالانفتاح على العديد من المواقف المتحولة في مختلف الحقول (الدينية والفلسفية والعلمية...). إنه فارق يضبط نوعية العلم وخصوصية السياسة، تبعًا لنوعية السؤال الوارد والغاية التي يهدفها وضع السؤال.

***

هكذا، بتجلية الفارق نعود إلى جوهر ما انتهى إليه العالم (جاك مونو) الذي جعل من «المصادفة» مطلقًا جديدًا استعاض به عن المطلق الذي إليه ينسب اللاهوتيون والمتكلمون صفات إبداع الكون وتدبيره.

عندما تصدى (جاك مونو) لمعرفة كيف تم إبداع الإنسان الأول، داخل كون عائم في اللانهاية وفي اللامحدود، قال إنه خرج بالمصادفة. لقد ظن (مونو) أنه، بهذا الجواب، يتجنب الأسئلة: كيف؟ ومتى؟ وأين؟ ولماذا؟ لكن المشكل بقي قائمًا. فمثلا:

– ماذا يساند افتراض تفرقع المنظومة الوراثية، في الدفعة/ الخلقة الأولى؟

حاول (مونو) أن يلغي من حسبانه الإجابة المباشرة على «لماذا؟» محاولاً أن يحل مشكل كيف تم وجود الإنسان في الكون بمفهوم «مصادفة».

– ما المصادفة؟

– ولماذا «المصادفة»، لا «الضرورة»؟

إن أمثال هذه التساؤلات تدل على أنه، لكي يحاول أي فكر أن يكون نظرة علمة عن العالم،

لابد أن يحيط بمعطيات الفيزياء، وأن يحسن التفلسف فى القضايا الكونية العصرية.

ألا يجوز، بالنسبة لما يتصل بالتصرفات المجتمعية، أن نؤكد أن السلوك البشرى لا يخضع لواقع المرئيات وحسب، بل يخضع، أيضًا، لمحرضات تتصل بعوالم أخرى، وفى طليعتها التأثيرات الدينية؟

إن هذا عين الواقعية وعين النفعية، وهو ما تلح عليه الموضوعية والعقلانية، فمن يريد استثمار كل الإمكانات الاستراتيجية، يلزمه ألا يغفل أى جانب من المعطيات: استثمار كل الطبيعة، وتوظيف الطاقات الإنسانية والأوضاع التاريخية التى هى نتيجة تفاعل الإنسان مع الطبيعة.

الجهاد الأكبر

الحياة لا تنحصر فى الصراع من أجل الإنتاج والاستهلاك، أو من أجل المعرفة والتكنولوجيا. هناك صراعات أخرى يفرضها المصير، ونحن مندفعون إليها. يستعين البعض على خوضها بجهاد روحى، والموقف الروحى لا يعادى التقدم وليس محايدًا بالنسبة للوضع البشرى. إنه ينطلق من الاقتناع بكرامة الإنسان وضرورة الدفاع عن حقوق الإنسان، قد يوحى بسياسة إنسانية متطورة، وبجغرافية سياسية جديدة. إن للحياة الروحية/الدينية حضورًا متحركًا، شاهدًا ومشهودًا (وإن كانت حججها، منطقيًّا صماء)، فجدلُ «المتكلمين» لا يعطى دينامية للإسلام، بل إن دينامية هذا الدين الأساسية وحججه هى الصدق فى الحياة. كل فعل يصدر عن المؤمن يلتزم به أمام ضميره (النية الحسنة)، وأمام الغير («الدين معاملات» حديث نبوى)، وأمام الله: ﴿إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء﴾، (قرآن ٥-٣).

* * *

يتهم اليوم التأمل الفلسفى، كما يتهم التأمل العلمى، بمواجهة الريب وعدم اليقين عساه يعيد للإنسان الثقة بالنفس. فالغاية المثلى أن يحصل اتفاق العقل مع القلب لمقاومة التخوفات من المستقبل ومفاجآته. فمنذ ١٩١٤ دخلت الإنسانية عصر العنف العالمى: الأرض تعرف الطوفان الدائم، والناس يبحثون بقلق عن سفينة جديدة لنوح جديد، لكن، لم يرتفع أى صوت ليصيح:

﴿يا أرض ابلعى ماءك! ويا سماء أقلعى!﴾[٣] (قرآن ٤٤، ١١).

فلا التكنولوجيا بقادرة على المساعدة، ولا المادة والماديات. فعندما يصرح البعض بأن كل الواقع يتقلص فى المادة، وأن المادة تكفى لتفسير الظاهرات الحيوية والسيكلوجية، يبقى أن الوجدان البشرى، وهو كذلك واقع وقد تجمعت فيه تجارب إنسانية لا تحصى، بحيث إنه عندما نصف «المادية» بـ«جدلية» نعلن عن تدخل الفكر وتأثيره.

فهل تأثيرات الذاتية والفكرية مجرد بنيات فوقية حقًّا؟

---

(٣) قيل ذلك للأرض عندما غشيها الطوفان وأحاط الماء بفلك نوح ومن معه ﴿من كل زوجين اثنين﴾.

«حسب النظرية المادية للتاريخ، إن العامل الأساسى فى التاريخ هو، بالدرجة الأولى، إنتاج الحياة وإعادة إنتاجها»(٤).

***

نزوع الإسلام الأول هو تنظيم ذلك الإنتاج، وقد وضع دستورًا لصيانة الحياة وتنظيم العمل والتعامل من أجل الحفاظ عليها. فيكفى رجوع متأمل فى القرآن والسنة، وفى الفقه لتأييد ذلك. وبما أن أغلبية العرب يجدون إنيتهم فى الإسلام، يلزم على كل من يهتم بالشئون العربية أن يفحصها فى تضايف مع الإسلام، الإسلام من المكونات والأبعاد العمقية والامتدادية للشخص العربى ولهويته.

يعرف أحمد كسرافى الإسلام:

«أن يتعلم المرء معنى العالم، وأن يتعلم معنى حقائق الحياة ليحيا طبقًا للعقل»(٥).

هذا جوهر الإسلام: أن تعرف العالم والحياة، شاكرًا فضل خالقهما، وتبعد من معاملاتك الشعوذة، والزور، والبهتان، والنفاق لتحيا «طبقًا للعقل» والضمير. إنها فلسفة أخلاق، من أجل حياة إنسانية سليمة، بلا التواء ولا غموض. يؤيد ذلك حديث نبوى:

«إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه. فيسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا». (البخارى والنسائى).

***

يناصب بعض الفكرلوجيين العرب العداء للمسيحية والإسلام، أى للدينين الذين عليهما أغلبية مواطنيهم، يقومون بذلك باسم «القومية»، كبديل، وبديل وحيد(٦).

فهل للقومية دينامية تخولها أن تحل محل الدين، فى أعماق الناس؟

وهل للفكرلوجيات معايير مقنعة ونماذج سلوكية مثيرة ومحرضة تتجذر فى وجدان الشعوب العربية؟(٧).

إن كل مجتمع يفقد هويته يضمحل بفقدان الدينامية الداخلية. فمسئولية مثقفيه أن يحصنوا حمى الإنّية الجماعية، لأن كل مؤامرة ضدها تعد استلابا قاتلا.

فماذا تربح بعض اتجاهات «التقدمية» العربية من محاربة الإسلام، وهى لم تعط أى بديل؟

لماذا تضحى بالأفكار الحركية الفاعلة التى مازالت محتفظة بمحتواها العقائدى والثقافى، ويتكون حولها الإجماع؟ (برغم استغلالها، ديماغوجيا، من طرف البعض).

---

(٤) أنجلس، أبحاث فلسفية، ١٢٣.

(٥) هذا إقرار لواقع وليس فيه تقييم الإسلام، له أو ضده.

(٦) Dar peyramun, e-falsafé, Téhéran.

(٧) خصصنا للقومية العربية فصلا فى كتابنا «مفاهيم مبهمة فى الفكر العربى المعاصر»، تحت الطبع، القاهرة دار المعارف.

إنها مفارقة مجانية، بلا مردود وطنى.

كيف يستطيع أحدنا أن يبنى فكرلوجيةً ما للعالم العربى دون أن يمزجها أولا بواقع هذا العالم وبهويته؟

لقد أبانت التجارب أن كل الذين حاولوا تأسيس تفكيرهم الإصلاحى على أنقاض الإسلام ذهبت الأيام بريحهم وجهودهم. فالحدسيات قد توحى بأفكار، ولكنها لا تعطى اتجاهًا لأن الواقع يمارس ولا يحدس إلا بعد أن يبدأ تحققه.

لهوية الشعوب حساسية ترغمها، طبيعيًا، على ألا تلبس لبوس غيرها. فخاصيات ثياب الإيسكيمو تفرضها عليهم طبيعة القطب الشمالى، كما تفرض طبيعة خط الاستواء خاصيات أخرى فى اللباس والتغذية،... لذلك يلزم قبل أى تحول تاريخى، أن تُدْعى الجماهير لأن تعى شروط المحيط العام للحياة. فدور المثقفين الأول هو العمل على وعى تلك الشروط وتغييرها لخلق قابلية للتوعية وللتغيرات فى الأعماق.

* * *

حاول البعض جمع شمل العرب حول «القومية» وحدها للتغلب على مجموع أزماتهم، إلا أن المحاولة تناست أن القومية تدخل فى الهوية الفردية والجماعية كمجرد عنصر يتفاعل ويتكامل مع عناصر أخرى، على رأسها الدين. فالقومية العربية مضطرة للتكامل مع الإسلام، لأن الإسلام يمدّ معتنقيه (وأغلبية العرب منهم)، بشحنات وجدانية تتعمق فى هوية كل مسلم، إذ يربى فيه الشعور بالانتساب إلى «أمة» بأبعادها الجغرافية والتاريخية وبأبعادها الروحية.

نعم إن القومية تدخل فى شبكة من مكونات الـ«الأنا» العربى. يقتنع الفرد أن له هوية عربية عندما يرتفع بسيرورة وعى الذات إلى مستوى الشخص، أى عندما يبدأ يعقلن علاقاته بالعروبة. والعروبة جنس، ولسان، وثقافة. أما اللسان فهو «لغة القرآن»، وأما الثقافة فهى الثقافة «العربية الإسلامية».

هكذا، من أية زاوية نحلل القومية العربية، نجد أنها لا تفهم إلا من خلال الإسلام وفى حقوله المختلفة. والإسلام، بدوره، لا يفهم إلا من خلال القيم التى عليها يقوم، ولها يدعو. فبتلك القيم، يميز العربى (المسلم، وحتى غير المسلم) بين درجات كل مستوى من المستويات التى يرتبط فيها بالغير وبها يحكم على أفعاله وعلى أفعال مواطنيه من خلال معايير مشتركة، فيقارن ويصدر أحكامًا تقييمية. وبدون ذلك، لن ترتكز القومية فى الوعى العربى المشترك وفى الذاكرة الجماعية. فمتى تقلصت القومية فى شعور وغيرة وحنين... (أى فى وجدانيات ليس لها معايير معقلنة / قابلة للعقلنة) فقدت القيمَ ومع القيم تُضيعُ فضائلها.

* * *

القومية واقع، والدين واقع، لكن فعالية القومية وإمكانات توظيفها تتقوى ويشتد صعودها إذا

ساندها الإيمان. فالقومية ضرورية ولكنها وحدها ليست كافية فى مقاومة التخلف. فالقيم لا تبلغ الحد المعيارى الفاصل الذى به تفرض الاعتراف بها إلا عندما تظهر محاطة بالبداهة وبهيلولة القدسية. فأخلاقية الإسلام تقوم على قدسية وتستلزم النية الحسنة:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...»[٨].

تلك خاصية القيم الدينية مما يجعلها أكثر طاقة ودينامية من غيرها. فلدينا ما يبرر الاقتناع بأن المصلحين الذين يهتمون بتصفية الذهنية العربية من أدران التخلف والتخريب والشعوذة ملزمون بالتعاون مع كل القوى الحية، وعلى رأسها الدين. فلولا اعتماد الحركة السلفية على القيم الإسلامية لما نالت النجاح الذى نالته[٩]. كان الإسلام مرجعاً ومنطلقا للسلفيين، وسنداً للاقتناع والإقناع كما كان سنداً معنويًا عند الاندفاع الواعى إلى التضحيات فى مقاومة الاستعمار. فلا حركة جماعية دون سند، ولا اقتناع دون مرجع. إن الإحالة على التعالى تقضى، عند المؤمنين، على القلق والحصر والسأم وتشحنهم، دينامية متجددة متنامية (كل هذا من منظار إيمان صادق).

* * *

قد يُعترض على هذه الصفحات أنها باعتبارها الإيمان أساساً من أسس إنقاذ القيم لإنقاذ العالم، تدعو إلى التعصب والجمود و...

إنها لم تقدم الإسلام بديلاً عن القوميات أو عن المعرفة العلمية، أو عن الفلسفات والفكرلوجيات، وإنما أرادت لفت النظر إلى حضور الدين فى المجتمع البشرى، حضوراً قويًا شاملاً فى كل مرافق الحياة. فغض الطرف عن الواقع المعيش، والخوف من إقراره، يعادى الموضوعية، وبالتالى يجمد الأوضاع. **إن الشعارات لا تغير مجرى التاريخ**، لأن الصيرورة التاريخية تفرض الاحتكاكات داخل المجتمع ومعاناة المصير اليومى، كما هو مع إرادة تغييره. والصيرورة كذلك كفيلة بأن تجعل القطاعات المجتمعية فى كفاحها اليومى، تحتك فى فعالية مع إرادة التغيير، وتصطدم بها، من أجل خلق مصير بديل عن الواقع المعيش.

وبخصوص «التعصب»، ما نظن أن الفكرلوجيات المعاصرة خالية من عصبيات ومن تعصب. يحاول كل نسق إدراك الأحوال والأوضاع، مقدرًا ومقيما ومؤولاً، كما يهتم بربط افتراضاته ومسلماته بنظرة كلية لا تترك منفذا لمقاييس خارجة عنها وتهمش كل ما سواها: «من ليس على إيمانك أو مذهبك مرفوض».

جل الفكرلوجيات لا تقبل النقد الذاتى، وبالأحرى أى نقد خارجى. فحتى الفلسفات والفكرلوجيات التى تدعى العلمية والموضوعية والعقلانية، وتؤكد أنها منظومات عن الحياة والوجود

---

(٨) حديث نبوى، البخارى ومسلم.

(٩) إن المغرب والجزائر مدينان لجهود وتضحيات السلفية بقسط وافر فى انتصارهما على الاستعمار (انظر: الكتاب السابق الذكر).

الشمولى، ترمى إلى تحقيق غائيات مسبقة، وهذا قد يحمل فى طياته إفراطاً فى التعصب (برغم حسن النية، أحياناً). فالكفاح يتطلب، فى إطار أنسقة شمولية غائية (دينية كانت أو غير دينية)، تفانياً وتضحيات مستمرة قد تؤدى إلى نفى التسامح.

نطلق هذا على سبيل الإجمال، بالرغم عن أنه يعترى المبادئ تحوير وتشويه على المستوى الفردى والجماعى عند الممارسة، سواء فى الأديان أو فى الأخلاقيات وفى الفكروجيات. فمثلاً، يؤكد القرآن أنه:

﴿لا إكراه فى الدين﴾ (٢٥٦، ٢). و﴿لكم دينكم ولى دين﴾ (٦، ١٠٩)، ومع ذلك فمن المسلمين من لا يعترف بحرية الدين والرأى لمن ليسوا على دينهم، بل نجد داخل الإسلام نفسه طوائف تتحارب من أجل الإسلام، فيكفر بعضها بعضا باسم الإسلام!..

وهل يوجد، مثلاً، اتجاه ماركسى يتسامح مع الألوان الأخرى من الماركسية، وبالأحرى مع الاتجاهات المخالفة للماركسية؟

إن التاريخ ملىء بالأمثلة على قمع الفكر خصوصًا ضد الأنسقة الإصلاحية التى ترمى إلى خلق مجتمع جديد كالمجتمعات ذات الطابع الإبراهيمى. فهاته المجتمعات تقوم على الإيمان بأن الله بعث عيسى بالمحبة لإنقاذ الإنسانية، أو على الرحمة والعدل والمساواة، كما هى الرسالة المحمدية. فاليهودى والمسيحى والمسلم، يندمجون فى المشروع الذى التزموا بتحقيقه، فأصبح الإيمان عقدتهم وعقيدتهم وخطابهم، فى كل الميادين، منه ينطلقون وإليه يعودون. إنها هيمنة تامة تتغلغل فى كينونة «المؤمن» ويجهلها غير المؤمن، لأن طبيعة الإيمان بلا مثيل.

حقًّا، «يؤمن» الماركسى بالمجتمع المستقبلى، حيث ينتهى صراع الطبقات واستغلال الإنسان للإنسان. وقبل الماركسية، قدمت الليبرالية، عند انطلاقتها خطاطة تقوم على مبادئ وقيم تحمل آمال الإنسانية فى الهناء والأخوة والحرية والعدل. لكن المهم ليس أن توجد قيم ومبادئ، أو أن تكون قد وجدت. إن المهم هو أن تبقى الإحالة إليها حية فى الضمير يوبخ العاصى المنحرف عنها، فيحصل ندم، فتوبة، أى مراجعة، وعودة إلى الأصول.

* * *

نشاهد اليوم أنه باسم الحرية «الليبرالية» و«الأخوة» (فى الله) وتحرير الإنسان من «الاستغلال» (الماركسية)... تخاض حروب طاحنة تهدد مصير البشرية، ومعها تلك القيم والمبادئ.

إن الميزة الكبرى لقيم الديانات الإبراهيمية (اليهودية والمسيحية والإسلام) هى كونها تتجذر فى إيمان يُخولها أن تجابه، من ذاتها وبذاتها، الانحرافات. معنى هذا أن من طبيعة الإيمان (الإيمان الصادق) أن يجعل الضمير يقظاً أبداً، لا يترك شاذة ولا فاذة من المراوغات والانحرافات إلا وبخ وأنذر.

* * *

إذن، للقيم الدينية بنية جوانية، لأن الإيمان ليس مطلق سند لها، بل رقيب ومؤنب ومُرمم،. فمنه تكتسب طاقات وحركية دائبة، كما أن للقيم الدينية بنية برانية تبرزها الممارسات. فالدين ليس من طبيعة النوايا فحسب، بل كما فى حديث نبوى سقناه سابقاً:

«الإسلام إيمان واستقامة».

يشترط إسهام النية عند كل فعل، إلا أن النيات الحسنة لا تكفى وحدها.

تبعا لذلك، نؤكد أن الواقعية والعقلانية والمعرفة العلمية ليست كل أفق الإنسان، وأن حركيات الإنسان تتخطى المُدْركات. فللإنسان أبعاد لا تخضع للمقاييس الكمية والجغرافية، إذ منها يتأسس عالمه الوجدانى والذهنى، وبها يتجاوز ذاتيته العددية، حيث حدسياته، مثلاً لا تتصل بَعْرضِه وطوله، ووزنه. أما الإيمان والتوق إلى التعالى فيتصلان، مباشرة بالأبعاد العمقية.

* * *

للفكرلوجيات وجه من التشابه مع الدين، برغم المتنافرات المزمنة. فمن المفارقات أن المتدينين يصوبون اتهامات إلى الفكرلوجيات، وهذه، بدورها، ترمى الإيمان بنفس الاتهامات. إلا أن الدين، يغرس (يعمل على أن يغرس) فى الكائنات البشرية عناصر خارجة عن حياتها، ويبدع فى الطبيعة البشرية فيختلط المزاج بما لم يكن فيه، بحقيقة غير مرئية تتجلى فى أفعال تحدد الهوية ويتحدد بها السلوك والممارسات. ويحاول الدين، كإيمان، أن يدخل إضافات فى المناخ الوجدانى وحاسة أخلاقية توجه أفعال الشخص كفرد وكعضو من جماعة (الأمة).

* * *

تلك بعض العناصر الثورية فى الإسلام (فى الأديان على العموم): تغيير الواقع كمظهر إلى واقع يعاش، الواقع - اللا مرئى إلى واقع يمارس من الداخل ومن الخارج. إنه الواقع وقد بات صراعات جوانية وبرانية.

طبعا، كثيرا ما يزيغ الأفراد عن المبادئ، فتأتى التطبيقات مشوهة للدين، على يد متدينين. وهذا ليس عجبا، لأن للكائن البشرى طبيعتين، طبيعة الأرض والغرائز، وطبيعة الميل إلى التعالى والتقوى، بفضل يقظة الضمير. فحياة الوجدان، وحياة ما تحت الشعور هى الصراعات المسترسلة بين الطبيعتين.

* * *

- للملحد أيضا مطلقيات...

التعصب طورٌ من الأطوار التى تمر بها الحركات الثورية، فيه يُعرقل المد التوترى حينا، ويعطيه قوى حركية حيناً، فيحتد الصراع، ومع حدة الصراع يبدأ العنف ضد كل ما قد ينتسب إلى نسق آخر، أو قد يظهر إنه يعوق الصراع. إذ ذاك يبرز دكتاتوريون يسفكون دماء الضحايا، وتزخر الدروب بالانحرافات عن الأسس الأولى. إن ضغط اللامعقول والعصبيات يتجاوز أخلاقية

المبادئ، ثم يأتى طور التصحيح فتنشأ دعوة الرجوع إلى الأصل «السلفية»، «إعادة قراءة»..

لكن تعدد «إعادة قراءة» ماركس لا يغلق الباب أمام قراءات جديدة، فهو، وإن كان آية على الخصوبة، دليل كذلك على ما تفرزه الماركسية من عناصر وثوقية، والوثوقية عين التعصب، ومنبع العنف. فمختلف التأويلات، برغم طابعها التجديدى، تظل تغرف من نفس المرجع - الأصل، مع الحفاظ على الاتجاه الأولى.

إن قصد المنحرفين أنفسهم برغم العنف أحيانًا والتساهل مع المبادئ أحيانًا، هو أن يثبتوا الحقيقة وقد هيمنت المطلقية على وعيهم وذهنهم، أن ينشروها ويثبتوها فى مجموع العالم، على اعتبار أن «الحقيقة» فعل ثورى يفرض ويبرر توحيد الاتجاه التاريخى العام.

تقوم بعض الفكر لوجيات على تجربة من نفس الطبيعة الدينية: إيمان وإرادة، قول قد يصحبه عمل فيصل الاندفاع إلى الحد الأقصى من الاقتناع بوحدانية حقيقتها، فتعلن حربًا شعواء على ما عداها: إما نعم، وإما لا، معنا أو ضدنا...[١٠]

* * *

السؤال الملح هو

ما الأفضل، منطقيًا وأخلاقيًا، الإحالة على حقيقة ترمى إلى الشمول وتريد توحيد الإنسانية حول إله أحد، وللجميع بالتساوى، وحول قيم أضحت إيمانًا بكرامة الإنسان، أو الإحالة على معطيات تفرق بين الناس، طبقًا لفروق عرقية أو لعنديات لا تساندها أخلاقية ولا بنيات؟[١١].

تكمن قوة الإسلام برغم الزوابع، فى كونه اعتقادات راسخة فى كيان الأفراد تمدهم بتوتر نحو التعالى، وإن التعالى منبع دينامية خلاقة تتوق إلى التعلق بالمطلق، فبلا مطلقية تصبح حقيقة الإيمان نسبية.

قد يرى بعض الكتاب أن ذلك من صميم اللاعقلانية التى تقود إلى ذهنية الظلام، وهذا رأى يتغافل عن أنه، بلا مطلقية، لا يستطيع «الرفيق» أن يغامر من أجل تحقيق «المجتمع الاشتراكى» النموذجى، ولا الليبرالى أن يُذَوِّت مشاريعه ويخاطر من أجل «الحريات الفردية». فالحقيقة، كما يراها المسلم، ليست هى حقيقة الرفيق، ولا حقيقة الليبرالى. وإن كان كل واحد منهم يعتقد أن حقيقته هى الحقيقة، وأنها وحيدة، فلو كان لها مثيل لما كانت حقيقة، ولجعل التعدد التعلق بها غير مجد، والاقتناع بصدقها قليل الاحتمال.

* * *

(١٠) استعمال «وحدانية» هنا استعمال فج: إشارة إلى ما يغلق الفكرلوجيات (فى تعصبها ووحدانيتها) من ملامح تشبه الممارسة الدينية عندما تغدو مقصية لغيرها.

(١١) لما قامت حركة «اليمين الجديد» سنة ١٩٧٩ بفرنسا، ركز منظروها على قومية العرق والدم، وبنوا لها هيكلاً فكرلوجيًا مستوحى من البيولوجيا. لكن، سرعان ما تصدى العلماء إلى الهيكل فهدموه بمعطيات نظرية ومخبرية.

ينظر فى الإسلام إلى واحدية الحقيقة (مطلقيتها) من منظارين

أولاً: من الجانب الذاتى: إنها قوة تحرك الشخص فى العمق، وحولها تنتظم المعتقداتُ والاتجاهات السلوكية التى تنتج عن تلك المعتقدات.

ثانيًا: من جانب مجتمعى إذ تتواجد جماعات تختلف نظراتها للحقيقة فتتعدد، بالضرورة، أوجه الحقيقة. إذ ذاك تتدخل الأخلاق، ويتدخل الواقع ليرغم كل مؤمن بأية حقيقة على أن يعترف بوجود اختلاف فى النظر إليها فمن الضرورى، إذن، الاحترام المتبادل بين أصحاب النظريات المختلفة.

ونتيجة أُخرى لذلك: لا إخلاص لمعتقدٍ ما، ولا وسيلة لحمايته، إلا بقدر ما يسود التسامح بين مختلف المعتقدات، شريطة ألَّا تعارض أية واحدة منها القيم العليا الشمولية المشتركة.

ذاك هو موقف الإسلام: إنه يرفض التبعية العمياء، ولو للأجداد، لأن كرامة الإنسان تستلزم احترام العقل البشرى وصيانته من السقوط فى القِردية. يطْلب القرآن من النبى الرسول:

﴿... واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه:
ما تعبدون؟
قالوا:
نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين.
قال:
هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟
قالوا:
بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ ٦٩-٧٤، ٢٦.

فما يحُض عليه الإسلام هو جمع البشر على الصدق للحقيقة العليا أى على إفراد الله بالعبودية حتى لا يطغى أى فرد فيُهين كرامة الآخرين بإرغامهم على الخضوع إليه، عابدين له مستعبدين.

إن الإشراك بالله يكسّر الوحدة ويخلق اللامساواة بين الأفراد وبين الأجناس، وبالتالى يقضى على الحريات البشرية هذا هو معنى الآية القرآنية التى يُخاطب بها النبى ﷺ:

﴿قل يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم:
- ألّا نعبد إلّا الله،
- ولا نشرك به شيئًا،
- ولا يتخذ بعضُنا بعضًا أربابا من دون الله.
فإن تولّوا، فقولوا:
اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ ٦٤، ٣.

عندما نزلت هذه الآية قال الصحابى، عدى بن حاتم:

«ما كنا نعبدهم [أى الرؤساء]، يارسول الله».

فأجاب محمد:

«أليس كانوا يحلون لكم ويحرّمون؟»

فأجاب:

«نعم».

فقال النبى:

«هو ذلك».

* * *

طبعًا، يجب أن نفرق بين الحقيقة فى الإسلام (حيث يتدخل الوحى لاكتشافها) وبين الحقيقة فى الماركسية، مثلا (إنها من العالم وفى العالم). بيد أنه، فى كلتا الحالين، الحقيقة «تريد» أن تظهر وأن تتجسد عمليا لتحقيق غايات، فهى كفاح وليست مجرد موضوع للمشاهدة أو التعبد، إنها أفعال تتحقق وتحقق.

هنا ينتهى التشابه.

الحقيقة، من وجهة نظر الإسلام، لا كينونة لها مسبقًا، ولا عندية جاهزة. لقد:

«خلق الله آدم على صورته»[١٢].

والصورة تعكس الذات، وهذه بمقتضى الشبه بالمبدع الأعظم، لا بد أن تمثل أنبل الخصال كالعدل والرحمة وما يتبع ذلك من بقية صفات الله الحسنى.

والمقصود بـ «إنسان» فى الحديث السابق مجموع البشر، دون تمييز أحد منهم: ذلك أولا، وثانيا، إن «صورة الله» تعتبر نموذجًا متعاليًا يستلهمه كل الذين يلتزمون بالإسهام فى تكوين مجتمع الشهادة والتوازن والاتزان، فمشروع الإسلام أن يجعل المؤمنين متوترين نحو التعالى. ومن هذا المنظار، يمكن التأكيد أن الحقيقة تنزع إلى التجسد فى أفعال تعبدية ودنيوية (المعاملات كما ينظمها الفقه)، وليس فى هذا ما يعارض الشعور بالكرامة عند الأشخاص، ولا تضر إطلاقًا بالوضع المجتمعى - الاقتصادى، أو بعلاقات الأشخاص والشعوب: إن أى فعل إنسانى يجسد وجهًا من أوجه الحقيقة ويكسب مسئولية وقدسية.

* * *

وإذا كانت للتأريخ مهام، فأولها أن يؤطر الشعوب تأطيرًا زمانيًا/تاريخيًا، ويجعلها تشعر بانتسابها إلى كتل إنسانية، شعورا من الأعماق. لقد كان قَدَر «الاشتراكية القومية» النازية وبالا عليها،

(١٢) حديث نبوى. انظر: صحيح البخارى. يوجد نفس المعنى فى العهد القديم.

وعلى الإنسانية، كما كان قدر فاشيستية موسيلينى، فذهبتا معًا أدراج الرياح عند أول زوبعة. إذ العلم لا يزكى الركائز البيولوجية العرقية التى ادعتا أنهما تقومان عليها! وإن الروابط التى تجمع بين «العرب» لم تبن أبدًا على الدم والعرق إلا داخل الحياة القبلية والعشائر، ولكن العصبيات تنحل فى الحضر لفائدة وحدات أخرى أوسع وأشمل. فالتعلق بالتمدن والحضارة يفرض تجاوز الفكر القبلى وما يشابهه من قوميات (فى المفهوم الضيق لقومية) وإلى تحقيق وحدات من أنواع أخرى، فيحل محل القبيلة «الوطن» و«الشعب» و«الأمة» و«الطبقة»، كما تحل مكان عاطفة العصبية أفكار لها من قوة الاقتناع ما يفرض «تعصبًا» مستنيرًا لها، برغم الاختلافات العرقية.

ففى كل وطن من أوطان المغارب، لم يتم حل مشكل الوحدة الوطنية عن طريق القومية العربية، ولكن بفضل العقيدة المشتركة. فالإسلام هو الذى جعل الأمازيغ[١٣] يخدمون العربية، نحوًا وصرفًا (مثل ابن أجروم)، وفقهًا (الحسن اليوسى) ويدافعون عن الوطن وعن دار الإسلام (المرابطون والموحدون)، ويقاومون الاستعمار الفرنسى، حديثًا، فى جبال الريف، وفى القبائل الكبرى والصغرى والأوراس، وفى الأطلس.. فالإمام عبد الحميد بن باديس الذى أعاد إلى الجزائر شخصيتها العربية الإسلامية، رغم طغيان الفرنسة، من أصل قبائلى (أمازيغى). كذلك محمد بن عبد الكريم الخطابى إنه (أمازيغى)، ريفى.

إن انصهار المغاربيين فى وحداتهم الوطنية (تونس، الجزائر، المغرب) مثال حى على أن لحمة الائتلاف والانتماء ليست قومية[١٤].

وفى المشرق، لم تأت القومية بحل للمشاكل، بل أمست من أهم المشاكل الأساسية: الأكراد، والأرمنيون، والدروز، والعلويون... فكلما صاح صائح بالقومية، اشتعلت حركات معادية باسم قومية الأقليات... فلن يُقضى على التعصب القومى، إلا ببديل أمْتن، وأشمل. يمكنك أن تكبت عاطفة مستعيضًا عنها بعاطفة أخرى، لكن الأفكار لا تكبت، فقد تتستر لفترة (التقية) أو تتلون ظرفيًا، إلا أنها لا تبرح الميدان إلى الأبد، فالأفكار تغالب الأفكار.

* * *

العالم العربى متدين، هذا واقعه لا ريب فيه، رضى عن ذلك بعض المثقفين أم سخطوا. ولشعوبنا فكرة عن كيانها من خلال القيم الدينية. فعندما تغدو القيم معتقدات لن تنتصر عليها إلا معتقدات أقوى منها. إن العاطفة القومية قد تُقوّى عند العربى المسيحى أو المسلم معتقداته، ولكنها لن تقدر

(١٣) «أمازيغ» هو الاسم الحقيقى لـ «البربر»، ومعناه الأصلى. الرجال الأحرار الغيورون على الكرامة.

(١٤) هذا فى المغارب. أما بالمشرق العربى، فلمفهوم قومية لوينات خاصة.

القومية العربية افتراض، أو على الأصح مشروع: تحقيق وحدة سياسية بين الشعوب العربية، والدفاع عن تلك الوحدة وعما تتضمن من مصالح مشتركة. إلا أن الملاحظ هو أن «المصالح» المختلفة أكثر بروزًا من «المشتركة». ومنذ تأسيس «جامعة الدول العربية» والخلافات تنمو، والتوتر يمتد. فمتى سنستفيد من التجارب؟

على أن تحل محلها. أتانا فكرلوجيون بنظريات، ولكنها لم تغير من الوضع شيئًا.

فلماذا الإدمان على معاكسة الواقع؟

* * *

إن الإسلام، لدى غالبية العرب، هو المبدأ والمعاد، الوطن الروحي والمحيط المجتمعي. وقد أعطت التجارب أن كل الهجمات التي شنت ضده باءت بالفشل ولم تخلف إلا حزازات وصراعات داخلية، وضياعًا للوقت والجهود، لأن الإسلام يتربع أعماق معتنقيه، في حين ليس للفكرلوجيين المعادين له عمق كاف قدير على ملء الفراغ، **والفراغ العقائدي انتحار معنوي للشعوب.**

تخلق القومية الشعور بالغيرية، ويَعِد بعض المنظرين للقومية بالغد الأفضل. لكن أخلاقية الإسلام هي التي أكسبت شعوبنا وحدة الذات ودفء الانتساب إلى أمة، بلا عنصرية وبلا انحصار داخل حدود مصطنعة.

طبعًا، لكل شخص، كما لكل جماعة، الحق في أن يكون مغايرًا للآخرين، إلا أن لهذا الحق حدودًا: ألا يتحول الاختلاف إلى خصام عوضًا عن أن يكون عنصرًا طبيعيًا للتكامل؟

كثيرًا ما يتطور الخصام إلى عداوة، ثم إلى حروب. فالاختلافات القومية (القومية السلالية) قد تكون منشطة للحياة كلما تاقت إلى التكامل المنشود، غير أنها تمسى مخربة عندما تتسبب في خلق مواجهات ساخنة. جاء في القرآن:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ سورة الحجرات، آية ١٣.

فكما تدفع القوميات القائمة على رابطة الدم إلى شوفينية إقليمية، فإن المسلمين، هم كذلك، قد يهدرون تيارهم الحيوي إذا أصيبوا بشوفينية عقائدية. فالتعصب، في كلتا الحالتين، ينحرف عن الخط السوي للحضارة والإنسية. فالإسلام، حسب ماهيته، يجعل الإيمان يهيمن، بعمق، على الكلية الفردية، وعلى الكلية الجماعية. إنه مغامرات تحرك الوجدان والعقل معًا، وتعطي الاطمئنان الداخلي، إذ تدخل المؤمن عوالم الأمل. إنها طاقات ذات أبعاد شعورية قابلة للتوظيف والاستثمار في الصراع ضد التخلف. وهذا ما لا قِبَل فيه للتحالف القومي المصطنع داخل الوطن الواحد (عربي - أمزيغي، عربي - كردي...). ترفض القومية (بطبيعتها) الشمولية، ومن هنا تفقد ما يترجمها أفعالا. إنها لا تمنح هوية قارة تدفع إلى التزامات أخلاقية على المستوى الإنساني. على عكس الإسلام. القومية لا تخلق في الأفراد التعلق بالتعالي الذي هو مصدر التضحيات والبطولة ونكران الذات.

البديل المعلق

إن اهتمام هذه الصفحات بما يدعيه الفكرلوجيون من مسئولية الإسلام عن تخلف العالم العربي محدود، ولكنه وارد بمعنى ما، إذ الموضوع يستلزم دراسة خاصة تستقي الأسباب الموضوعية لذلك

التخلف فتحدد حظ الإسلام فيها، والحظ الذى يرجع إلى المسلمين العرب. فالمهم الآن هو إثبات واقع يمثل إنكاره جحودًا وتزويرًا للتاريخ. نريد أن يتقرر لدينا أن الإسلام متأصل فى العرب، وبفضله برزوا على مسرح تاريخ المثاقفات العالمية والحضارة الإنسانية، ناقلين منقحين، ومبدعين.

***

فالقضية الأساسية هى:

هل سيلعب الإسلام، اليوم و/أو غدًا، الدور الذى لعبه أمس، بالنسبة للعالم العربى أولا، وبالنسبة للإنسانية ثانيًا؟

لا ندرى، فنفس السؤال قد يوضع بالنسبة لكل الأديان، ولكل الفكرلوجيات المعاصرة، ولا أحد يستطيع أن يؤكد أن شيئًا منها سيبقى غدًا. الشىء اليقينى الذى لا يخامرنا فيه شك هو أن الإسلام بنية أساسية يقوم عليها الكيان الذهنى والوجدانى والأخلاقى، لدى العرب على المستوى الفردى والجماعى (اعتقادات ومعاملات). فيلزم السياسيين الواقعيين أن يدخلوا فى حسبانهم، بكل تقدير ودقة، هذا الوضع إذا أرادوا استثمار الطاقات الجماهيرية الكامنة.

طبعًا، قد يتخذ توظيف هذه الطاقة طابع الاستغلال الديماغوجى، وهذا ما حصل بالفعل، ويحصل فى كثير من الحالات. لكن عوضًا عن محاربة الإسلام، إن دور الفكرلوجيين أن يفضحوا هذا النوع من التوظيف السيىء كيلا يقطعوا الصلة المباشرة بالجماهير وينعزلوا أكثر.

يحدد العالم العربى الإسلامى هويته عن طريق معتقداته. إن الدين هو وطنه و«قوميته»... فإضافة هذه الهوية، ذات الأبعاد العمقية والأبعاد الامتدادية[١٥]، تحدث انشقاقًا مستديمًا فى الشخصية الفردية وتيهًا جماعيًّا خارج الزمان والمكان.

***

تتجند الفكرلوجيات الثالثية لخدمة الشعب، ولكنها تحرمه من الأرضية التى عليها يمكن أن يقوم كل إصلاح. فمن هنا عزلة المثقفين، برغم التزامهم وتضحياتهم، ومن هنا أيضًا خيبتهم ونفور الجماهير منهم. **فالتخلف** تأخر زمانى، أى تأخر عن الوضع الحضارى فى مراحله الحالية. وكل تأخر يقع نتيجة توقف عن السير، أو تغافل عن الواقع، على أن الانتظار عجز، والتسلى ببوارق الأمل انغمار فى بحر حافل بالمخاطر والمزالق. فالأمل يحتاج إلى «مراجع» تتمتع بثقة الجماهير والمثقفين معًا، وإلى قدرة على التكيّف والتغير، طبقًا لمتطلبات الأوضاع.

***

---

(١٥) للتفرقة بين بُعد عُمقى وبُعد امتدادى، انظر كتابنا:
De l'être à la personne, Paris, P.U.F., 2 éd. Alger, SNED, p. 123 à 349.

فأين هى تلك المراجع، وأين القابلية على التكيف؟

هنا نحس بالفراغ الذى لم تنجح الفكرلوجيات فى ملئه، بل إن بعضها يعمّق الفجوة عندما يهدم الأصالة دون أن يأتى ببديل.

اختار العرب الإسلام كفهم وشرح للحياة، وكأفق للتاريخ، أما الفكرلوجيات فلا تنبع من الداخل، بل تنزل من صومعات النخبة. فالمثقفون يعون مسئولياتهم، ولكنهم يظهرون، فى كثير من المجالات، العجز عن التكيف. إن فكرلوجياتهم مأخوذة عن الغرب، إنْ جزئيًّا وإنْ كليًّا. لذلك ينقصها،

أولاً: الفضاء الطبيعى الأصيل الذى فيه تكونت تكوينها البدْئى (أى الغرب)، وتفتقر.

ثانيًا: وبالتأكيد، للفضاء العربى الذى طبخت من أجله وقدمت له فى صيغة طبخة مبتسرة.

إن كل نظرية تفتقد الهوية ولا تثير أى نزوع للإقبال عليها، تعجز عن أى حوار خصب ودينامى.

* * *

قد يكون جل الفكرلوجيات الثالثية أتت قبل الأوان، أو أنها غير مكتملة النضج، أو أن البنيات المجتمعية لم تهيأ بعد لتقبُّلها. وفى الحالات الثلاثة، يمكن اتهام المثقفين بأنهم أخطئوا السبل.

إن سلوك المجتمع العربى لا يخضع، فى كل أقطاره، لعامل واحد، ولا لنفس العوامل، وعلى نفس المستوى، إلا أن التيارات الفكرية الرائجة، فى الأوساط القارئة، غالبًا ما تكون هى هى، من المحيط إلى الخليج.

خاتمة الدفتر الأول

الأزمات المعاصرة، بالرغم عن جدليتها الجهنمية، لم تجهض، كليًّا، فالأمل فى الإنسان وفى مستقبل العالم، عالم مؤنسن يبعث على الاطمئنان والتعاون.

ولإنعاش وبعث الأمل، يكفى أن يصح من الإنسانية العزم على تغيير الأوضاع، وأن تَحْسُن نيات رجال الساعة، مستهدفين فى أفعالهم احترام القيم الفكرية والأخلاقية والروحية. ذلك هو طريق التحرر من البغضاء والأنانية والشوفينيات والعداء.

لا القيم والإيمان، ولا العقلانية، والواقعية والموضوعية تحرّم العلوم والتكنولوجيا والتطبيقات. إن استعمالاتها طبيعية وضرورية، بيد أن الواجب أن ينجز الاستعمال بأسلوب إنسانى، بمعنى أن يستهدف خدمة مصالح الناس (كل الناس)، دون تضحية بأحد من أجل الإنتاج والدخل.

وأولى الشروط اللازمة لأنسنة الحضارة هى أن يُقْضى على كل ما يسهم فى جعل «الإنسان ذئباً أمام الإنسان». فعلى الجميع، مهما اختلفت الديانات والفكرلوجيات والأجناس والألوانِ والألسنة والثقافات، أن يعمل على أن يكون الإنسان أخاً للإنسان. فبدون ذلك، لا حضارة حقا ولا قيم شمولية، ولا إيماناً خالصاً، ولا معرفةً نافعة. فلن ينتصر الإنسان على الأزمات إلا عندما يقضى على مجتمع الذئاب.

فما هى الأسلحة للمعركة ؟

* * *

قدمت هذه الدراسة اقتراحاً بتذويت القيم، اعتماداً على الإيمان. حقًّا، إنها عملية صعبة ونجاعتها تخضع لشروط، أولها : الاقتناع بضرورة التسامح فى كل معانى (تسامح). فبدونه، لا سلم بين الأفراد ولا بين الشعوب، وبالتالى لا تبادل ولا تكامل. ومن طبيعة الحياة أن تفرض التكامل بتقسيم المهام فى المجتمع. إن العقل يشاهد ويحلل ويركب ليصنع العلوم وليطبقها، أما عالم الحدسيات وروح اللطف والوعى والضمير والوجدان، وكل ما يتصل بالتجارب الوجودية، فلا دخل فيه للعقل. كما ليس من اختصاص الإيمان تنظيم السير، مثلاً وبناء شبكات الطرق أو العلاقات الجمركية... فنكران قيمة العقل فى تسيير الحياة مضر لأنه خلف منطقى. مثل ما هو مضر وعبث تجاهل دور الإيمان فى المجتمع إذ منه تستمد القيم الدينامية، وبه تسقى الآمال، كلما حطمت الممارسات نفَسا.

جدول المصطلحات

(١) تآن (E.) Simultaneous, (f.) simultanéité

معية زمانية.

يحصل تآن عندما يلتقى حدثان أو فعلان فى آن واحد.

يقابله «تعاقب».

يستعمل بعضهم «معية» وهذا لا يلائم لأن Similtaneous يدل على تزامن فى لحظة قصيرة جدًّا، وهى «الآن». لذلك نفضل «تآن».

* * *

(٢) إجرائى (E.) Operational, (f.) opérationnel

فى مقابل (E.) ideal, (f.) idéal

(أ) ما يتصل بالنموذج الأمثل لا بالواقع.

(ب) ما يرضى إرضاء تامًّا الإدراك العقلى والعواطف.

لذلك، إن الإجراء ملازم للفعل، الفعل وهو يحقق شيئاً فى الواقع. طبعاً، قد تكون الانطلاقة من آراء خاصة أو من التعلق بنماذج، أو من أفكار شائعة، إلا أن هذه كلها لا تكتسب قيمتها إلا بمفعولها العملى.

* * *

(٣) أخلاقية (E.) Ethics, (f.) éthique

– فلسفة الأخلاق

– علم موضوعه أحكام تقييمية للتمييز بين الخير والشر.

* * *

(٤) إشكالية (E.) Problematic, (f.) problématique

– مجموع التساؤلات التى يضعها علم أو تضعها فلسفة ما، حسب الوسائل المتوفرة، فعليًّا، والتى يقتضيها ذلك العلم أو تلك الفلسفة.

يمكن إثبات الأحكام الإشكالية، أو نفيها على اعتبار أنها مجرد أحكام احتمالية، بمعنى أن الفكر لا يختارها إلا اعتباطيًا.

* * *

(٥) إنسية (E.) Humanism, (f.) humanisme

إنها، بصفة عامة، مجموع الجهود والمواقف التى تعمل على الرفع من شأن كرامة الإنسان مع احترام الفكر البشرى، والقيم الشمولية.

* * *

(٦) إمية (E.) Alternative, (f.) alternative

نحتنا هذا المصطلح من «إما...» للتعبير عن الوضع المحرج الذى يلزم الفرد باختيار واحد من بين موقفين مختلفين أو شيئين متنافرين لا يمكن الجمع بينهما (إما هذا... وإما ذاك...)

* * *

(٧) إنية (E.) Thisness (f.), ipiséité

الوجود الفردى المتعين (مقابل الماهية)

اللفظ مشتق، حسب أبى البقاء (الكليات)، من إن التى تفيد التأكيد وتقوية الوجود.

* * *

(٨) أنانة (E.) Egocentrism, (f.) égocentrisme

تمركز فى الذات (فمن وجهة نظر الذات وحدها تقدر الأمور).

(أ) أنانية مفرطة تجعل الطفل يركز العالم فى أناه، لأن وجدانه لا يتفتح على الآخرين إلا بقدر ما يكون هؤلاء عناصر فى أفقه الذاتى.

(ب) مرحلة من مراحل نمو الطفل الأولى يصعب عليه فيها أن يفهم الأشياء من غير منظاره الخاص، إذ لا يعطى أى اعتبار للآخرين واهتماماتهم. فى هذه المرحلة، يختلط الموضوع بالذات.

قد يسترسل هذا الارتكاز على الذات عند الفرد حتى بعد خروجه من سن الطفولة. إنها حالة مرضية.

يمكن أن نقول إن بعض المجتمعات تصاب بأنانة، فتصدها عن النمو السيكولوجى.

* * *

(٩) أنانية (E.) Egoism, (f.) égoisme

مقابل «إيثار»: حب الذات بإفراط على حساب مصالح الغير:

«إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر!»

* * *

(١٠) برغماتية/ذرائعية (E.) Pragmatism, (f.) pragmatisme

كيف نوضح أفكارنا؟

على هذا السؤال، يجيب الفيلسوف الأمريكي (ت. س. بيرس) بأن تصورنا لموضوع ما هو تصور لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية، لا أكثر.

يعنى هذا الجواب أن علامة الحقيقة أو معيارها هو العمل المنتج، لا الحكم العقلى (وطبعاً لا التقييم الأخلاقى).

إذن: معيار الأفعال فى قيمة عواقبها العملية.

* * *

(١١) تابُــو (E.) Tabou, (f.) tabou

كلمة بولينزية الأصل، يراد بها: ما لا يجوز الاقتراب منه أو لمسه من كائنات أو جمادات لأنه مقدس (حيوان، نبات، حَجَر...) إن الاقتراب من التابو يحرض فيه غضباً فينزل سخطه. يجب التذرع للتابو بشعائر وطقوس خاصة.

وقد تنتقل قداسة التابو إلى من يلمسه فيصبح هذا نفسه مقدساً ويشمله التحريم، ولا يخرج منه إلا بطقوس محددة.

إن التابو نظام دينى بدائى يخضع له كل أفراد نفس المجتمع، فيكون قاعدة التنظيم المجتمعى وضبط علاقاته وتوكيد القيم والأعراف.

لذلك، إن كل من يعبث بالتابو يتعرض لانتقام مجموع العشيرة.

* * *

(١٢) تاريخ (E.) History, (f.) Histoire

ننبه إلى الفرق بين هذا اللفظ وبين تأريخ (بالهمزة) مصدر (أرَّخ، يؤرخ».

إن التاريخ:

(أ) مجموع الأحوال المتغيرة التى مرّ أو يمر بها كائن ما (من الكائنات الحية) أو العالم أو

الظاهرات والأحداث. فلكل إنسان تاريخ (سُجل أو لم يسجل / أرخ أو لم يؤرخ)، كما أن هناك تاريخ الأرض، وتاريخ الطيران، وتاريخ الطب...

(ب) الأحداث والأحوال الخاصة التى تمارسها المجتمعات البشرية فى تطوراتها.

❋ ❋ ❋

(١٣) تاريخية (E.) Historicity, (f,) historicité

(أ) صفة لما هو تاريخى (أى مخالف لما هو متخَيَّل).

تأريخ الوجود البشرى لإبراز مميزات علاقة الإنسان بالتاريخ.

(ب) معنى إيبستملوجى: خاصية كائن ما من حيث اتصالها بواقعه.

(جـ) عند الوجوديين: وضعنا كموجودين يدفعنا الوجود إلى استخدام حريتنا فى نزوع نحو المستقبل، رغم أننا موجودون فى الزمان ومرتبطون به ارتباطا متينا.

فالتاريخية، إذن، ملتصقة بالوجود البشرى بصفته يحيا مندمجا فى الحينونة الخاصة به.

❋ ❋ ❋

(١٤) تَغَرُّب / اغتراب

اندماج كلى فى الأجنبى (الغرب بالنسبة للثالثيين)، بعد الانسلاخ عن الثقافة الوطنية والتراث القومى.

ومنه الغرْبَة

❋ ❋ ❋

(١٥) تعالٍ (E) Transcenden, (f.) transcendance

مجاوزة الحدود المألوفة.

فلسفيًا: مجاوزة العالم الحسى. فالتعالى ما يسمو على الحدود المعهودة إلى ما لا نهاية: الجمال والعدالة المثاليان، فى مقابل العدالة والجمال العاديين.

يقابل تعالى «كُمون»، و«معايشة».

❋ ❋ ❋

(١٦) تَعَلْمُن (E) Scientisme, (f.) scientisme

يستعمل فى معنى قدحى: اتجاه يرفض أية معرفة إذا لم تقم على معطيات العلوم الوضعية. ومن هنا، ليس للعقل أية وظيفة خارج ما تتطلبه تلك العلوم من أفعال.

أرغم هذا المفهوم أكثرية المفكرين على مقاومة التعلمن.

(١٧) ثالثية (E) Tiersmondism, (f.) thiermondisme

ثالثى (f) thiermondiste

من «العالم الثالث».

بعد أن وُضع اللفظان بالفرنسية وأصبحا رائجين[١]، اقترحنا لهما هذين المقابلين بالعربية.

❊ ❊ ❊

(١٨) حَيَّنَ (E) To actualize, (f.) actualiser

زَمَّن، فى الوقت الحاضر، حصولَ حدث أو فكرة أو أى شىء (= وقَّتَ).

❊ ❊ ❊

(١٩) حَيْنونَة (f) en-train-de...

فى الشخصانية الواقعية: الحركة الزمانية التى تتلاحق فيها أنماط الزمان الثلاثة: الماضى وقد مضى، والحاضر وهو «يحضر» ليمضى، والمستقبل ولما يحضر كليًّا.

وكل نمط من هذه الأنماط، إنما هو مزيج من سابقه ولاحقه. فليس هناك ماض محض، ولا حاضر محض، ولا مستقبل محض.

إنه سياق وتسلسل أحوال وأحداث وظاهرات فى تلاحق مستمر.

❊ ❊ ❊

(٢٠) ذَوَّتَ (f.) subjuctiver

التحم بالشىء، صيَّره متصلا بالذات وكأنه جوانى.

❊ ❊ ❊

(٢١) سيرورة (E.) Process, (f.) processus

سياق الأحداث والظاهرات وتسلسلها، فى ارتباط بعضها ببعض.

يأتى الحدث (أو الظاهرة)، إما متفقًا مع محيطه، واقعًا فى سياقه، وإما مخالفًا له (إذاك يجب البحث عن أسباب الخلاف).

فالسيرورة إذن طريقة التعامل مع الفعاليات المجتمعية، والسيكلوجية، والطبيعية فى تعاقبها وهى ترمى للحفاظ على وحدة ونظام.

❊ ❊ ❊

---

(١) اشتقاقا من العبارة التى وضعها A. Sauvy، بعد الحرب العالمية الثانية: «Le thiers-monde» (= العالم الثالث).

(٢٢) شَيَّأ تَشْيِىء (E.) To reify, (f.) chosifier (chosification)

من «شَىْء» = اسم لما يمكن أن يعلم، أو يحكم عليه، أو يخبر عنه. = (E) Thing, (f) chose

- يقابل شيئًا: أَنْسَنَه (f.) humaniser

الأشياء موجودات لا تعى وجودها، وبالتالى لا تقدر على فهمه ، أو تغييره.

فأن يتشيّأ كائن بشرى، معناه أنه ينسلخ عن هويته العاقلة والواعية ليماثل الأشياء فى ثبوتها، فيمسى غير قادر على حركة أو مشاريع إلا بغيره.

***

(٢٣) عَرْبَسَه (E.) Arabesque, (f.) arabesque

(فى الفن المعمارى العربى): نوع من النقش أو الخط المنعرج للزخرفة.

***

(٢٤) فصام (E.) Schizophrenia, (f.) schizophrénie

مرض من الأمراض العقلية، ولكنه لا يؤدى دائمًا إلى العدوى. إنه ذهان وظيفى.

من أعراضه تفكك الروابط بين الوظائف النفسانية داخل الذات، وانفصال الذات عن العالم الخارجى، فى انطوائها على عالم التخيلات والأحلام واجترار الأفكار. ومن مميزات السلوك الفصامى الإكثار من المفارقات والتناقضات والفوضى.

***

(٢٥) فكرلوجيا (= إيديولوجيا) (E.) Ideology, (f.) Idéologie

دراسة الأفكار والمعانى وخصائصها وقوانينها، وعلاقتها بالعلاقات التى تعبر عنها. إنها، بوجه خاص، البحث عن أصل الأفكار والمعانى.

***

(٢٦) كزويستيكا، تسويغية (E.) Causuisty, (f.) causistique

فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية: إصدار الفتاوى، اعتمادًا، بالخصوص، على الرخص.

إنها دراسة قضايا الضمير قصد تأويلها تأويلات ملائمة لتسويغ أفعال تخالف القواعد الأخلاقية والدينية عند تطبيقها على الأحوال الخاصة.

وبانزلاق المعنى العام الأول، أمست الكزرويستيكا/التسويغية تعنى التحايل والمغالطة لتبرير أفعال أو تأويل نص تأويلا مفرضا.

***

(٢٧) مَبْحَث (E.) Theme, (f.) thème

«هو الذى تتوجه فيه المناظرة، بنفى أو إيجاب» (الجرجانى، كتاب التعريفات).

* * *

(٢٨) مؤرِخِخ (من: أرْخخ) aphologétique (f.)

نقترح هذا اللفظ (رغم هجانته) لنعت أقوام يخلطون بين التأريخ والتباهى. إنهم مداحون لماضى شعوبهم، ولو كان ذلك على حساب الحقيقة. يزيفون الواقع التاريخى تعويضا عن التخلف الذى يعانونه، أو ليستروا عيوب ومخازى تراث بلدهم.

* * *

(٢٩) مثالية (E.) Idealism, (f.) idéalisme

* * *

(٣٠) تمعْنن (E.) Ideation, (f.) idéation

السيرورة التى بواسطتها تتكون المعانى والمفاهيم وترتبط فيما بينها.

وتطلق، أيضًا، على الوظيفة الطبيعية التى عنها تحصل المعانى والمفاهيم.

* * *

(٣١) مجتمعى (E.) Social, (f.) social

نسبة إلى «مجتمع».

كثيرًا ما يلتبس الأمر على البعض فيستعملون اجتماعى (Sociologique) نسبة إلى «علم الاجتماع (= السوسيلوجيا).

* * *

(٣٢) مستقبلية prospective

علم يهتم بدراسة الأسباب العلمية والتقنية والاقتصادية، والمجتمعية التى تسهم فى تطوير العالم المعاصر.

* * *

(٣٣) مغارب Maghreb

نقترح تخصيصه لتسمية مجموع بلدان «شمال إفريقيا / المغرب الكبير / المغرب العربى). وبذلك سنتجنب الالتباس مع «المغرب الأقصى / المملكة المغربية / مراكش (= MOROCOO, (MAROC

والانتساب إلى مغارب هو مغاربى، خلافا لمغربى الذى سيدل فحسب على «marocain».

* * *

(٣٤) مفارقة Paradox, (f.) paradoxe (E)

ما يضاد الرأى الشائع (ويغلب استعمال اللفظ فى معنى قدحى).

* * *

(٣٥) مَكْنَز thésaurus

لفظ «طيزوروس» من أصل إغريقى (= كنْز) يطلق على قاموس يستوعب كل ألفاظ لسان ما. وقد دخل، حديثًا، فى مصطلحات علوم الإعلام ليدل على جدول خاص بأعم الألفاظ التى ينبنى عليها صنف من أصناف المعرفة ويحدد آفاقها الدلالية.

أما هنا، فنطلقه على مجموعات ألفاظ - مفاتيح، وقد أحيط كل واحد منها بحقل دلالى، ودخل كل حقل فى مجموعة حقول تتجاذب داخل كتلة بواسطة تداعى المعانى.

* * *

(٣٦) مِنْظَار Prospect, (f). Perspective (E.)

نفضل استعمال هذا المصطلح (من وزن مرآة) على اللفظ الشائع فى نفس المعنى، «منظور» (من وزن مفعول). يتراءى لنا شىء من منظار كذا فهو منظور/منظور إليه.

* * *

(٣٧) نظرية: Theory, (f.) Théorie (E.)

ومنه: تنظير ومُنظّر.

* * *

(٣٨) وثوقية: Dogmatism, (f.) dogmatisme (E.)

كل فلسفة أو فكرلوجيا أو عقيدة دينية تدعى أن ما تدعو إليه هو الحقيقة الوحيدة، لا يتسرب لها أى شك (فى مقابل: الفكر النقدى، والنسبية). إنها حقيقة تقوم على تصورات معينة لا على علاقاتها بالواقع ولا على أوجه الحق فى إقرارها.

* * *

(٣٩) وجودى: (E.) Existential, (f.) existentiel

(أ) ماهو حاصل، عمليًّا فى عالم وجود ذات واعية.

(ب) نسبة إلى الوجودية، إلى فلسفة الوجود بصفتها تجربة حية (Philosoplie existentielle).

(جـ) مجرد إثبات أن الواقع ليس مجرد موضوع للمعرفة، بل وجود قادر على التأثير فى الذوات المتصلة به. فعندما نؤكد أن «الإيمان تجربة وجودية» مثلا، نقصد أن الإيمان ممارسات يجند سيرورتها الذاتَ المؤمنة بكليتها.

جدول الأعلام

كتب للمؤلف

(١) بالعربية:

- **مصطلحات فلسفية،** (فرنسى - عربى) الرباط، طبعتان.
- **مفكرو الإسلام،** الرباط، مطبعة الأمنية (نفد).
- **من الكائن إلى الشخص،** دراسات فى الشخصانية الواقعية، جـ ١. القاهرة، دار المعارف (ط. ١ و ٢).
- **الشخصانية الإسلامية،** القاهرة، دار المعارف (ط. ١ و ٢).
- **من الحريات إلى التحرر،** القاهرة، دار المعارف (ط. ١ و ٢).
- **جيل الظمأ،** (رواية) بيروت، المطبعة العصرية. (ط. ٦)، جمعية التأليف والترجمة والنشر، الرباط.
- **العض على الحديد،** (مجموعة قصصية)، تونس، الدار التونسية للنشر (ط. ١ و ٢).
- **من المنغلق إلى المنفتح،** (نقله عن الفرنسية محمد برادة). القاهرة، مكتبة الأنجلو (ط. ١ و ٢).
- **إكسير الحياة،** رواية مستقبلية، القاهرة، دار الهلال. ط ٢، عيون المقالات، الدار البيضاء.
- **المعين فى مصطلحات الفلسفة والعلوم الإنسانية،** (فرنسى - إنجليزى - عربى) الدار البيضاء، دار الكتاب، جـ ١.
- **تأملات فى اللغو واللغة،** تونس وطرابلس، الدار العربية للكتاب.
- **ابن خلدون معاصرًا،** بيروت، دار الحداثة (نقلته إلى العربية فاطمة الجامعى - الحبابى) (ط. ١ و ٢).
- **بؤس وضياء،** (شعر) بيروت، عويدات.
- **ورقات فى الفلسفات الإسلامية،** طوبقال الدار البيضاء، ١٩٨٨.
- **يتيم تحت الصفر،** عيون المقالات، الدار البيضاء.

(٢) بالفرنسية:

- **أغانى الأمل** (شعر) نفد.
- **بؤس وضياء،** الطبعتان ١ و ٢، باريز، أزفالد، الطبعات ٣، ٤، ٥، الدار البيضاء، دار الكتاب.
- **من الكائن إلى الشخص،** (دراسة فى الشخصانية الواقعية). باريز، النشرات الجامعية الفرنسية. (ط. ٢، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع).

- **أحرية أم تحرر؟**، باريز، أوبيي - مونطين (ط. ٢، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، الثالثة، أوبيي، باريز، وعكاظ، الرباط.
- **من المنغلق إلى المنغلق**، (عشرون حديثًا عن الثقافات الوطنية والحضارة البشرية) الدار البيضاء، دار الكتاب، (ط. ٢، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، (ط. ٤، عكاظ، الرباط، وبيبلسيد، باريز).
- **عالم الغد، العالم الثالث يتهم**، (دراسة عن الغدية)، نشر بالاشتراك بين الدار البيضاء وشربوك (كندا).
- **العض على الحديد**، (قصص) ترجمه عن العربية موريس بورمانس (باريز - الدار البيضاء).
- **الشخصانية الإسلامية**، باريز، النشرات الجامعية الفرنسية.
- **مختارات من الشعر العربي والشعر البربرى**، فرنسا، منشورات الصداقة عن طريق الكتاب.
- **صوتى يبحث عن طريقة**، (شعر) باريز، سيغيرس (ط. ٢، دار الكتاب - الدار البيضاء).
- **ابن خلدون**، (فى سلسلة: فلاسفة كل العصور) باريز، سيغيرس، (ط. ٤، عكاظ، الرباط، وبيبلسيد، باريز).
- **الضائعون**، (سيناريو).
- **الأمل الشارد** (رواية)، فرنسا، الصداقة عن طريق الكتاب (ط. ٤، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الرباط).
- **آلام بايقاع**، (ديوان للشعر العربي والبربري). جـ ١، «فتح فى موعد مع الأمل» و«الجزائر فى موعد مع النهضة» جـ ٢، «شعر بأصوات متعددة»، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- **الزهرة تموت**، (شعر) عكاظ، الرباط، بيبلسيد، باريز.
- **ثمل بالبراءة**، (شعر) سان جيرمان دويرى، باريز.
- **عـادل**، (شعر) الدار البيضاء.
- **الأمل رغم الموت**، (شعر) عكاظ، الرباط، وبيبلسيد، باريز.
- **أزمة القيم**، (ترجمه عن العربية أحمد السياعى)، عكاظ، الرباط، وبيبلسيد، باريز.
- **الأعمال الشعرية**، (ج ١).

فهـرست

الصفحة

القسم الثانى
فى سبيل الإنقاذ

القسم الثالث
طاقات الإسلام

رقم الإيداع		٧٩٢٥ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3463 - X	ISBN

١ / ٨٧ / ٣٧٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

يتحدث هذا الكتاب عن القيم الأخلاقية والروحية التى نُميّز بها بين ما يجب رفضه وما يجب تَقَبّله . وعندما تغيب القيم نتوه فى متاهة الاختيارات بين ما ينفع وما يضرّ . ومن المعروف أن القرن العشرين هو قرن الأزمات والشعور بالتنافر بين الأفراد والدول فلا الليبرالية ، ولا الاشتراكية ، ولا أى فكر قادر على حل هذه الأزمات وأصبح الحل الوحيد هو الإيمان .

فى هذا الكتاب نقوم بتشخيص الداء والدواء لأزمات هذا القرن .